روايات الهلال

مدونة أبو عبدو

سبع جنّات

منير مطاوع

دحرج

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
Telex ٩٢٧٠٣ hilal u n
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الالكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١،٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

لوحة الغلاف: الفنان محمد الركوعي

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦،٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الاصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

الكتاب: سبع جنّات
المؤلف: منير مطاوع
التصنيف: روايــة
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
أبريل ٢٠١٦
رقم الإيداع: ٢٠١٦/٨٠٩٠
الترقيم الدولى: 978-977-07-1756-1

سبع جنّات

منير مطاوع

رواية الهلال

دار الهلال

٢٠١٦

١
«جنّات»

رعشة شديدة..

السماء تهوى

والأرض تتزلزل

وأنا فى مهبّ ريح تأخذنى إلى حيث لا أعلم.

كأننى على موعد مع النهاية.

أو كما لو كنت، حتى، ألقى النهاية الآن.. بلا موعد.

هل هكذا تكون النهاية؟

هل ينتهى كل شىء على غير الصورة التى تمنيناها، ونتمناها على الدوام؟

هل الإحباط هو كل ما سنخرج به من هذه الدنيا ؟

ساورنى إحساس غامض بأن ما أصاب"سلطان" هو إعلان صريح موجّه لى من القدر، بأن كل شئ راح وانقضى.

ولن تبقى لى إلاّ الذكريات.

لماذا يا حبيبي؟..

ماذا فعلت حتى تقع فى هذه الغيبوبة الغامضة؟

من زمان وأنت تؤكد لى أنك توقّفت عن كل عاداتك المدمّرة، ونزواتك الطائشة.. وجنونك الذى أحبّه وتحبّه.

فهل توقّفت فعلا؟.

وهل لمجنون مثلك أن يتمكّن من نزع نفسه عن جنونه ؟..

ماذا يبقى له بعد ذلك؟.

لا أصدّق أنك تخلّيت عن جنونك..لا تقدر.. أنا عارفة.. متأكّدة.

وطبعًا هو الذى قادك إلى الغيبوبة.

لم أصدق عندما قرأت الخبر فى الجريدة.. تصوّرت أن هناك خطأ فى الاسم.. لا يمكن لـ"سلطان سعيد" أن يسمح للغيبوبة بالاقتراب منه!

ولمّا تأكّدت، حاولت أن أوهم نفسى بأن ما تأكّدت منه غير صحيح..

غير معقول..غير مؤكّد..

رفضت أن أصدق.

وربّما لهذا رفضت أن أحضر إلى المستشفى..

أنكرت الواقعة.. اعتبرتها لم تقع.

لكن الرعشة لازمتني..

الإحساس بأن السماء تهوى فوق رأسي. والأرض تتزلزل تحت قدمَىّ، غلبنى. انهزمت.

وفى المستشفى، حاولت أن أغالط عيني، فلم أرك وقد سحبتك الغيبوبة إلى.. لا أعلم إلى أين!

لكن عيناى تجاوزتا مغالطتي، وركّزتا نظراتهما عليك، على هذا الجسد المسجّى السابح فى سماء لا نراها، تتماس طاقتها مع مشاعرنا فنستشعرها وندخل فضاءها، وننجذب إلى سحرها وسرّها وسرمديتها.

أمّا أنت، فعدت لحالك الأولى.. حالك التى عاينتها أنا وأحببتك من أجلها، حال البراءة والصفاء والحلم والخيال والنقاء.

ها أنت تعود إلى أصولك، لكنك تغيب عن وجودك، فهل أفرح أم أسخط على قدرى، وقدرك؟..

اللعنة!

تعاودنى الآن ذكريات عمرى وعمرك، عمرنا معا.

لا أنسى لحظة مطبوعة فى صميم كيانى، لحظة اكتشافك لى، واكتشافى لك.

أقف مذهولة أمام غيبوبتك، وأروح فى غيبوبتى..

ويدور شريط طويل، يستعرضه كيانى، رغم الغيبوبة.

المشهد الأول:

فى فراشى، نائمة أنا، وادعة، حالمة، فراشة صغيرة فى بستان الأحلام.

كم كان عمرى وقتها؟. ١٧، ١٦. غالبا ١٨ .

عمر الهوى والمراهقة والتمرّد والاكتشاف والـ .. ماذا أسمى ما جرى؟

لا أدرى.

نعود للمشهد:

يظهر علَى الشاشة شاب صغير.. يدخل غرفة نومى بخطى متلصّصة.

يتردّد قليلا، وبعد لحظة، يتسلّل إلى الفراش ويقترب منى، وأنا نائمة.

يصدمه حالى، أتمدّد بالعرض.. ذراع مفرودة على امتدادها تماما، وأخرى تائهة الاتجاه.. والغطاء لا يقوم بواجبه، فأبدو عارية من أسفل إلا من طرف رقيق من الغطاء، يعرّى أكثر مما يدارى.

لأول مرة فى حياتك تشاهد خفايا ماتحت الرداء.. تسيطر عليك طبيعتك المتأمّلة لكل شىء، فتترك لعينيك فرصة السياحة فى المنظر، معالم الأنوثة متاحة لك.. ومكشوفة، وأنا نائمة، وأمى تجلس مع أمك فى ونس كل يوم، عندكم.. فى شقتكم التى نسكن نحن فوقها تماما.

ماذا أتى بك إلى هنا؟..

أمى بعثت بك لتجلب لها شيئا ما.

لم تكن تعلم أنها بعثت بك لتدخل حياتى إلى الأبد.

طال التأمل، وتحرّكت أشياء أخرى، وجدت نفسك تقرّب وجهك من وجهى، تشمّ رائحتى، وتلمس ما يمكنك لمسه منى، وأنا نائمة..

وتتحرّك غرائزك فتقودك إلى ما لا أستطيع ذكره.. ولا تمضى لحظة جديدة حتى أستفيق.. وأنزعج. كما لو كان كابوسا.. أحاول أن أصرخ.

تضع كفّك على فمى. أبعد كفّك.. وأعاود المحاولة.. تغلق فمى بطريقة أخرى.. تلصق شفتيك بشفتى وتغتصب قبلة، أحاول المقاومة.. و.. و.. أهدأ قليلا، ثم.. أستسلم، وأندمج معك فى أول قبلة فى حياتى، بعدما استعدت وعيى، وعرفت أنك أنت.. أنت.

قبل هذه الواقعة، لم أكن أفكّر فيك أو فى أى شاب بالتحديد، كانت أحلامى هائمة، مموّهة، خالية من التحديد، كان فارس أحلامى خياليا.. كنت أشعر أن أمامى بعض الوقت قبل أن أحدّد هويّة فارسي.

الواقعة.. اختصرت لى مسافة الزمن، وضعتنى على خريطة الحب، أصبح لى عنوان.. وأصبح لى فارس، وأصبح لى مستقبل.. أحببتك.

كنت أعرف أنك موهوب فى الرسم، وكنت أنتظر الفرصة، لأطلب منك أن ترسم لوحة لى.

لكننى لم أفكّر فيك كحبيب.. لماذا؟.. سألت نفسى بعد ماجرى، ولم أصل إلى ردّ واضح.

فى الغالب – وهذا تفسير لم أطلعك عليه قبل الآن – أننى تصوّرت، وتوهّمت أن لك فتاة أحلام.. من زميلاتك فى كلية الفنون الجميلة.. فنانة مثلك.

بعد هذه الواقعة الغرامية غير العادية، التى لم تستغرق سوى دقائق قليلة، فهمتك وفهمتني، ودبّرنا مؤآمرتنا الصغيرة الأولى، تعود لأمى بما طلبته، وبعد قليل تخرج، تأتى إليّ، وتقول إنك ذاهب للقاء صديق لك فى "السيدة".

نجحت المؤآمرة.. ونجحنا فى الفوز بأطول وقت ممكن لنكون أقرب مانكون لبعضنا البعض.

المصادفة هى التى كشفتنا وعرّتنا واختصرت المسافات، فاجتمع الحبّ العفيف مع الجنس الرقيق، الناعم، اللذيذ.. وتحقّقت أمنيتى بأن ترسم لى لوحة بفرشاتك المميزة.

قلت لى بعد ذلك بسنين، أننى علّمتك أول درس فى فن الحبّ.

شعرت بفخر، مع أنى لم أفهم مقصدك.. وقتها، فهمت بعدها بكثير..

قلت لى أن اسمى وجسمى وروحى وكيانى اندمجت جميعا معك وفيك.

قلت لى إن الأقدار هى التى اختارتنا لبعضنا، أنت وأنا لم نختر بعضنا بعضا.

قلت لى إنك تحبّ أمى وتعتبرها تماما كأمك.

وكان حبّنا من نوع آخر مختلف عما نعرفه من حكايات وروايات وأفلام وأغان ومسرحيات ومسلسلات..

حبّ تلقائي، طبيعي، برئ.. حبّ حقيقى يا"سلطان".

هل تسمعنى ياحبيبي؟..

أنا هنا معك، ليتنى أستطيع أن أغيب مثلك وتستغرقنى الغيبوبة، لأكون معك.. أنا وأنت فقط فى غيبوبة واحدة.

لماذا تركتنى وحدى ورحت فى هذه الغيبوبة وحدك؟!

ماذا أفعل الآن؟..

تذكّرت مشهدا آخر:

بعد ٤ سنوات من المشهد الأول، تخرّجت أنت وعملت رساما فى مجلة "الوعد" التى كنت تتدرّب فيها أثناء الدراسة. فضّلت الصحافة على العمل الأكاديمى، قلت إنك فنان حرّ.. وكانت الكلية تريدك معيدا.. وأنا أصبحت مشرفة التربية الرياضية بمدرسة "المنيل" للبنات.

أردت أن تزورنى فى المدرسة، ولم يكن ذلك ممكنا. فذهبت أنا إليك فى المجلة، جلست معك ومع الرسامين والصحفيين والصحفيات، لاحظت أن نسبة النساء والبنات كبيرة فى مجلتكم.

ولمحت أنت شعورى بالغيرة، قلت لى: إننى أجمل وأكثر جاذبية من كل نساء الدنيا.

ومع ذلك لم تتقدّم لخطبتي.

كنا نعيش حياة كاملة ونمارس الحبّ والعشق والحنان فى شقتك.. وكنت أطبخ لك وأقوم بكل أعمال البيت من وقت لآخر، ثم أعود لأعيش مع أهلي.

لكنك لم تتقدّم لخطبتي.

قلت لى: إنك تخاف من الزواج.. ومرة أخرى قلت: إن الزواج غير مهم، مادمنا فى حالة حبّ.. ومرة ثالثة عبّرت عن خوفك من أن يقتل الزواج بشكلياته، حبّنا.

«يعنى هى الورقة اللى حتربطنا يا"جنّات»؟..

ردّدت هذه العبارة مرّات لاحصر لها، ورفضت كل محاولاتى لإعلان زواجنا رسميا.

حبّى لك كان ومازال أقوى من أى ورقة.

لكن ماذا كنت أفعل وقتها، وأهلى يطاردوننى بالعرسان والخطّاب؟..

جئت لك يوما فى المجلة، لأصحبك معي، وننزل سويا نجلس فى مكان، لعلنى أقنعك وأضعك فى قلب مشكلتي.

يومها جرّبت أن أهددّك بأننى لن أكون لك.

لكن الفنان الرسّام مشغول بأفكاره ولوحاته.. والحبّ يملأ قلبه، وحبيبته تملأ حياته.

وهو يعيش الحياة بطريقته الخاصة، حياة بوهيمية، لا انتظام فيها ولا ارتباطات ولا مسئوليات.. حياة الفوضى اللذيذة.

ضاق بى أهلي، أبى وأمى وإخوتى كلهم يعرفون علاقتى بك.. وتعلّقى بك، وحبّى لك.. ويعرفون أنك تحبنى، وانتظروا وصبروا إلى أن استقرّ حال عملك، قالوا لى إنهم ينتظرون تقدّمك لخطبتى..

لكنك لم تتقدّم.. وطال انتظارهم وانتظاري.. خمس سنوات يا "سلطان" تركونى ألتقى بك وقتما أريد. وعندما تسلّمت عملي، قلت لنفسى أن الخطوة التالية هى الزواج من حبيب القلب.

مات أبى دون أن يرانى عروسا كما كان يتمنى.

وماتت أمّى كذلك.

ويئس إخوتى من حالى، فأصبحوا يتجاهلون الموضوع .. ثم تطوّر الأمر فأصبحوا يتجاهلون وجودى.

لا حديث ولا زيارات، ولا شىء على الإطلاق.

حتى تلميذاتى وزميلاتى لم يعدن يحدثننى عن الحبّ والزواج.

.. تقدّم لى خُطّاب كثر، رفضتهم جميعا.

وبلغنى أن بعض زميلاتى بالمدرسة كنّ يتحدّثن عنيّ من وراء ظهري، البعض يؤكد أن "جنّات" عندها مشكلة، هى سبب عدم زواجها. وأخريات يقلن أن مهنتها طردت العرسان. فمن يتزوّج امرأة لها عضلات؟!

ولا أحد يعرف السرّ.

لا أحد يعرف أننى لم أحبّ أحدا قبلك ولابعدك.

ولا حياة لى بدونك. حتى لو لم نتزوّج.. وهكذا مضت حياتى معك، زواج بدون زواج!

أتذكّر أيام دراستنا الجامعية، أنا فى معهد التربية الرياضية في "الجزيرة" وأنت بالقرب مني، فى كلية الفنون الجميلة فى "الزمالك".

وطبعا أنا آتى إليك، وأمضى أوقاتا طويلة معك، وأحيانا نسهر ليال جميلة فى الكلية مع شلة زملائك وزميلاتك.

عندما علم منّى زميل لك، وكنا قد أصبحنا أصدقاء، أننى سأرتبط معك بالزواج فى وقت لاحق، حذّرنى منك.

قال لى "مجد الطوبجى" أو"سارتر" كما كنتم تطلقون عليه سخرية من حبه للفلسفة الوجودية:

– اسمعى كلامى يا"جنّات"..."سلطان" ده صاحبى من زمان وأنا خابزه وعاجنه أكثر منك.. دا أنا مسميه"السلطان السعيد".. مش"سلطان سعيد"!. عارفه ليه؟

ضحكت ضحكة بلهاء، ولم أفهم ما يقصده "مجد".. وقلت متسائلة باستخفاف:

– ليه يا"مجد"؟..

مش عارفة ياعبيطة؟..

– ماتقول بقى وبلاش مطمطة كلام.

لأنه سلطان زمانه.. مع البنات والستات، وحتى الموديلات هنا فى الكلية.. ده مش بتاع جواز يابنت الحلال، ونصيحتى– وابقى افتكريها– سيبك منه، وشوفى لك شاب ابن حلال يستّتك.

لم أستمع لنصيحة "مجد".. وكان على حق، يعرفك أكثر مني.

عشت سنوات تائهة فى حبّك.. تائهة فى المسافة بين الحبّ والزواج.

أحبّك.. وأحبّ أهلي.. ولامانع عندى فى أن نعيش معا بلا زواج رسمي.

فأنا مثلك مؤمنة بأن الورقة ليست دليلا ولاضمانة.

لكن الأهل والمجتمع والناس لهم رأى آخر.

عشت ممزّقة رغم هنائى بحبّك لى وحبّى لك. ولم أتمكّن من البقاء معك فى بيت واحد لوقت طويل.

خفت من سطوة الآخرين.

خفت من قوة غامضة، تفاجئنا فى لحظة مباغتة وتحطّم كل شىء.

وكان ذلك سببا فى ارتباك علاقتنا، كنت أنا ومخاوفى السبب.

أعرف ذلك الآن.. أعترف لك به الآن، فلم أقو على الاعتراف وقتها.

خلال دراستك كنت ألاحظ وأسمع.. وأشعر بحدس الأنثى، أن كلام "سارة" صحيح..

– ده سلطان زمانه.. مع البنات والستات، وحتى الموديلات هنا فى الكلية.. ده مش بتاع جواز يابنت الحلال.

حبيّ لك منعنى من مواجهتك بمخاوفي.. خفت أن أكون كمن يقطع فرع الشجرة الذى يجلس عليه.. أو يفتح ثغرة فى قارب الحبّ، فيغرقه، ويغرق معه.

خفت أن أفقدك.. أفقد حبّك لي.. أضيّع بكلمة منى تاريخنا معا..

وتحمّلت سنوات من اللوعة والعذاب، والقلق والأرق. لكننى لا أنكر استمتاعى بك وبصحبتك وحبّك ومودّتك وحنانك وشقاوتك وفحولتك .. وجنونك.

آه من جنونك يا"سلطان"!

تعذّبت به كثيرا.. وتمتّعت أكثر.

ولولاه لما وقع بيننا الحبّ.

ومن جنونك أنك ربما تحبّ إنسانة واحدة، لكنك تعاشر كثيرات.. كل النساء مباحات لك، كلّما أمكن.

ربّما كنت أنا سبب جنونك هذا.. وربّما طبيعتك كفنان.. وربّما عالم كلية الفنون الجميلة المثير.. والعلاقات الحرة والموديلات والأساتذة الذين علّموك أن الوجه الذى ترسمه بحاجة إلى الحبّ أولا.. قلت لى إن أستاذك فى قسم التصوير الزيتى "حسن الصوفي" كان يكرّر مقولته لك بالذات وهو يلاحظ تميّز ريشتك، أن المفتاح الوحيد للوصول إلى أعماق الشخصية هو الحبّ.

وأن اللوحة الخالية من الحبّ، تكون باردة. وأن الفارق بين الفن والصنعة هو الروح..وأن الروح فى "البورتريه" تأتى من اقترابك من روح الشخصية التى ترسمها.

هل لكل هذه التعاليم، كان عشقك للنساء، واهتمامك الزائد برسمهن فى لوحات وبورتريهات؟!

وهل وقعت فى حبّ كل من أجلستها أمامك، ونقلت "روحها" إلى لوحتك؟..

كم واحدة من كل هؤلاء مارست معها الحبّ؟..

وكم واحدة أوقعتها فى حبّك؟.. وكم واحدة توهّمت أو تطلّعت لأن تكون زوجتك؟..

وكم منهن قبلن الاكتفاء بدور الملهمة أوالعشيقة؟!

دوامات الأسئلة التى لم أجرؤ على مواجهتك بها كادت تسحقني، أصابنى فى فترة، نوع من الشرود الذهنى، والنحول البدنى وانعكس على ممارستى لعملي، وفقدت فرصة ترقية وظيفية، لهذا السبب غالبا، بجانب أسباب أخرى ربما.

ومع ذلك أبقيت على علاقتنا المعلّقة فى الهواء.

وعندما أصبح لى بيت.. شقة مستقلة خاصة بي، بعيدا عن عيون الأهل، وكل العيون، كنت تأتى لتقيم عندى أياما وشهورا.

ثم تختفى.. أياما وشهورا.

وأسمع أنك مشغول بمشاريع لوحات، وأسمع أنك غارق لشوشتك فى علاقة حسّية مع امرأة ما.

وأسمع أنك لاتستطيع الارتباط بامرأة واحدة.. وأسمع أن عشقك للجنس يفوق عشقك لأى شىء آخر.. وأى إنسانة واحدة.

أمضى أياما وليال موحشة مع نفسي، مع هواجسى ومخاوفي، وخيباتى.

أفكّر أن أكون مثلك، عاشقة لممارسة الحبّ.. وليس للحبّ نفسه!

أسمع أنك تعلّمت من خبرتك معي، وهى أول خبرة لك، أن تحبّ الممارسة، تعشق الجسد، تعبد الجمال الأنثوى، وتصلّى فى محرابه، بطريقتك.

زياراتى لك فى الكلية طوال سنوات دراستك، عرّفتنى بكثيرين وكثيرات ممن حولك، تلامذة وأساتذة.. وكنت أعرف من لوحاتك ملامح نسائك الأخريات، وكانت أمامى فرص كثيرة لأن أنغمس فى لعبة مشابهة للعبتك.. مع زملاء لك أو حتى أساتذة، كانت العروض كثيرة والإغراءات مثيرة، والفرص عديدة.. والعملية سهلة، لكننى كنت أحبّك.

وكان حبّى لك يحمينى، ويكفينى.

ليس هذا فقط ، بل ظننت فى نفسى أننى لا أصلح لغيرك، لا أعرف كيف أحبّ إنسانا سواك.. لا أجرؤ على أن أتعرّى سوى لك، لا أقوى على الشعور بعاطفة أنثوية صادقة نحو أى رجل غيرك..

مقاومتى لكل الضغوط والإغراءات حمتنى من السقوط فى بئر الضعف الإنسانى، قوّت شعورى بنفسى وإحساسى بالسمو وقدرتى على التماسك.

تغيّرت نظرتى لك بعد ذلك، لاحظت على نفسي، أننى أعاملك كطفل، فاقد للقدرة على الاستقرار والوقوف على قدميه، كنت قد قرأت رسالة دكتوراه فى علم النفس جاء فيها أن الرجل الذى يميل إلى الجمع بين الحبيبة والعشيقة.. (أو العشيقات، فى حالتك) هو إنسان يعانى من عدم التوازن النفسى وفقدان الشعور بالأمان، وأيضا الخوف من.. الاستقرار!

أعدّت الرسالة صديقة لي، تعرفها أنت، هي"سماء" أخت صديقك وزميلك فى المدرسة الثانوية وفى الكلية "سمير نور"- الذى أصبح الآن من كتاب مجلتكم المعروفين- وكانا مثلنا من سكان"عابدين".

"سماء"- كما تعلم - دخلت آداب عين شمس، وحصلت على الدكتوراه وكانت رسالتها عن "الأثر النفسى للعائلة فى ميول وسلوك المراهقين تجاه الجنس الآخر بعد سن الرشد".

ومع ذلك، فشلت أساليبى الخاصة، فى تحويلك إلى إنسان يشعر بالاستقرار والأمان، وبالتالى لايحتاج إلى عشيقة (أو أكثر) بجانب الحبيبة (الزوجة مستقبلا)..

وربما يعود فشلي إلى سبب لا يدّ لي فيه، هو أن الدواء جاء متأخرا جدا، بعد أن استفحل الداء وسيطر عليك؟!

دائما ما أحاول أن أقنع نفسي بأنك برئ من التهمة الموجهة إليك، الخيانة.

وأنك لاتقصد ولاتتعمّد خيانتي.

أنت فقط نشأت على هذه الشاكلة، ربما لظروفك العائلية، وربما لتجربتك العاطفية / الجنسية معي، وربما هيّج شعورك بالرغبة في كل أنثى، كونك درست جماليات الجسد، وكنت ترسم الموديلات العاريات، واختلطت بهن، وأعرف أنك عاشرت إحداهن.

أحيانا كنت أغفر لك خطاياك مع الأخريات، وأعلّل ذلك بكل الأسباب السابقة.

وأقول لنفسي إن"سلطان" يحبنّي أنا فقط، أما الأخريات، فهن مجرد "لحسات" يتذوقها الفنّان الذي بداخله، و"طبّاخ السم بيدوقه"!

وأعيد على نفسي كلماتك التي لا أنساها عني وعن روعتي ورقتي وجمالي، وجلالي، وحسن طلعتي، وتناسق تكويني، وبريق عيوني، ورشاقة خصري وفتوة بدني واكتناز شفاهي، وطراوة صدري، وبيضاوية وجهي، وحمرة خدودي، ورجرجة أردافي، ورقّة ملمسي ونداوة داخلي، ونعومة بطني، ومرونة ساقي و.. و.. و..

كيف مضى بنا العمر بهذه السرعة المخيفة يا"سلطان"؟..

سنوات طويلة مرّت منذ واقعة حبّنا.. تصوّر؟!

لكنك - ويالغرابة - لم تتزوّج.. لا منّي ولا من غيري من نسائك!

.. حافظت على عهدك معي وحبّك لي.

ولم أتزوّج أنا طبعا.

تأتي لتعيش معي فترة، وأذهب لأعيش معك فترة.

تختفى تماما فترات.. تسافر للخارج، أو تذهب لتمضية الشتاء فى مرسم "الأقصر".

أو تترك شقتك وتعيش فى مرسمك.

وطبعا عرفت بعد وقت، أنك استسلمت لنداء الرغبة والشهوة، وعشت مع "هدى فخرى" فى بيتها، وكانت الحجة أنك ترسم لها لوحة بورتريه كبيرة.

وقتها خطر لى أن أهاجم بيت "فاتنة الزمالك" الثريّة.. أقتحمه، وأواجهها، هذا حبيبى أنا.. لاتقربيه، ولاتخطفيه مني، هو لايحبّك.. ولن يحبّك، يحبّنى أنا فقط..

أنت تستغلينه، تستمتعين بشبابه وصحته وفنه وهو أصغر منك .. أصغر بفارق ملحوظ..

أيامها لم أكن أعرف النوم.. كان الأرق رفيق لياليّ.

كنت أذهب كالمذهولة إلى "الزمالك"، وأتجه نحو" فيلا فخرى" فى شارع "حسن صبرى".. أعرف حي"الزمالك" جيدا، من أيام الدراسة، عندما كنا نمسحه شارعا شارعا.. فاكر ياحبيبى..؟ فاكر أيامنا الحلوة يا"سلطانى"؟..

كنت أقول لك: أنت سلطانى،

وتردّد أنت هامسا:.. وأنت جنّاتي!

وكنت أصدّق همسك.. وأتوهّم، كنت مغيّبة بالحبّ والعشق.. إلى أن جاءت الأحزان، وظهر لى أن لك جنّات أخرى غيري، وجنّات.. وجنّات!

عددها عندى- والله أعلم - سبع جنّات!.. سبع عشيقات يا"سلطان"؟!

كانت أحزانى تمتص حيويتى وصحتى، لكن خبرتى كبطلة سباقات سباحة المسافات الطويلة السابقة، أفادتنى كثيرا.

تكثيف الطاقة. تقسيم الجهد. النفس الطويل. الإصرار. التحمّل. الجلد. التركيز على هدف الفوز.

كنت مدرّبة على كل هذه القدرات والمهارات المعنوية والعصبية..

عشت قصة حبّى لك، أتخيّل نفسى أخوض أطول سباق لسباحة المسافات الطويلة، ولأننى غالبا ما أفوز فى هذا النوع من السباقات، فإن لدى إصرار جبّار على الفوز.. وهذا ربما سبب عدم خروجى من المضمار.. فمازلت أحبّك، وما زلت فى السباق، ومصمّمة على الفوز.

٢

«سلطـــان»

«جنّات» هى حياتى .. أول حبّ وأول عشرة كاملة، أفكّر فيها فى غيابها وحضورها.. وفى يقظتى ومنامى.. وحتى فى الغيبوبة هى معى دون أن تدري.. أعرف أنها تأتى كل يوم الى المستشفى، وتبقى أطول مدة ممكنة.

ولولا أنه غير مسموح بالمبيت هنا، لباتت.

هى لاتعرف أننى فى الغيبوبة أشعر بما حولي، بطريقة مختلفة، طفيفة، "طشاش" يشبه الأطياف والخيالات والأحلام، والأساطير وقصص الأطفال، أرى بعض الأشياء، والأجسام، وفى الغيبوبة يتكوّن لدى الإنسان حسّ خاص تزداد فيه بعض القدرات، كالشمّ والسمع، والرؤية من وقت لآخر، موجات من الإدراك الطفيف تتبعها موجات طويلة من النوم أو الاستغراق فى الغيبوبة.

رأيت "جنّات" بعد فترة من وجودى هنا..

تعجّبت من أنها لم تحضر على الفور.

لكن حضورها، وهذا التخاطر بينى وبينها، أوضح لى كل شىء.

لا بد أنها تعجّبت لوقوعى فى الغيبوبة.. ولا بد قالت أننى لا أسمح للغيبوبة بأن تأخذنى منها!

"جنّات" فى جحيم، تتعذّب معي..عذابا مقيما!

لا أقصد ذلك، لكن ما العمل، الأمر ليس بيدى، أحبّها فعلا.. ولا أحبّ غيرها.

هى تعرف هذا، وليتها تكون مؤمنة به.

لكن مشكلتها، ومشكلتى، هى أننى أحببت ممارسة الحبّ.. ولم أحبّ الإقدام على الزواج.

وربما أكون قد ظلمتها معى، لكن هذه حالى، وهذا نصيبها. نحن لم نختر من نحبّ.. نحن لانختار من نحبّ، هناك قوة خفيّة، طاقة مغناطيسية أو كهرومغناطيسية لا أدري، تحرّك عواطفنا..

قرأت مرة أن الحبّ يحدث نتيجة تفاعل كهربائى يشعر به المخ وينقله القلب أو العكس، لا أتذكّر الآن، فأنا - لاتنسوا- فى غيبوبة.

والمثال واضح، فهل أخترت أنا الوقوع فى حبّ"جنّات"؟..

هل هى التى اختارت؟

لا أنا ولا هى اخترنا، لكن الحبّ وقع علينا ووقع بيننا، ووقعنا فيه فى لحظة قدّرتها الأقدار.

طبعا كان يمكن أن أكون إنسانا مختلفا، وتتم وقائع المشهد الأول من قصتنا بطريقة مختلفة، ولا يقع حبّ أو أى شىء.. ربما لما وقع أى شىء.

لنتصوّر مثلا شخصا آخر غيري، بعثت به أم"جنّات" إلى شقتها، ليجلب لها شيئا ما.. ولنتصوّر أنه مرّ بغرفة نوم"جنّات".. ودفعته غريزة حبّ الاستطلاع ليرى ما رأيت.

ماذا كان يمكن أن يفعل؟

ربما تجاهل الأمر كله، ونظر للناحية الأخرى. وجلب ما طلب منه أن يجلبه ومضى.

ولم يقع حبّ.

ربما - بعد أن شاهد ماشاهدت - اندفع نحو الغطاء، وفرده وسوّاه ليغطى ماتعرّى من جسد "جنّات". ومضى.

ولم يقع حبّ.

وقد يكون أمعن النظر وتلذّذ.. و.. و.. ثم.

انسحب من المشهد بسرعة.
ولم يقع حبّ.
وماذا لو كانت "جنّات" غير"جنّات"؟
ماذا لو أنها صمّمت على الصراخ والرفض والرفس وعدم التجاوب؟
ماذا لو قلبت الدنيا فوق رأسى وأخبرت أمها وأمّى توّا بمحاولتي؟!
وقد تتصرّف بطريقة أخرى.. لو كانت إنسانة أخرى..
فالمسألة واضحة، القدر رتّب الموقف، وأنا وهى لعبنا الأدوار كما تليق بنا.

الحبّ هو حادث عرضى تاريخى أزلي، غامض. مُبهم. ساحر. باهر.
يقع دون إرادة المحبين، ودون ترتيب وتخطيط منهم أو من أحدهم.
الحبّ مفتاح الفرج.
وحكيم الحبّ الأول "ابن حزم الأندلسي" يقول:
"إن الحبّ أوله هزل وآخره جد، وهو لا يوصف، بل لا بد من معاناته حتى تعرفه. و الدين لا ينكره و الشريعة لا تمنعه، إذ القلوب بيد الله عزّ وجل.

والمحبّة أنواع، تتغيّر بتغيّر أسبابها، إلا محبّة العشق الصحيح فهى التى لا فناء لها إلا بالموت. و فى هذه الحالة ينشغل البال و يحدث الخبل والوسواس والنحول و سائر دلائل الحزن، على نحو لا يحدث مثله فى سائر أجناس الحبّ".

وأنا أحبّ "جنّات".. ولا أحبّ غيرها.. وخوفى على هذا الحبّ النبيل الجميل الكامل المتكامل، الذى دفق النار فى كيانى وحرّك كل خلايا وجودي، خوفى من أن يتلاشى.. ينهار.. ينتهي. يكون كأن لم يكن، هو الذى يفرض علىّ ألا أقبل بتحوّله من حالة وجودية ممتزجة بين رجل وامرأة إلى"شركة عامة" علنية، تخضع لقانون الشركات، أقصد ضغوط وقيود وتسلّط وتجبّر المجتمع والناس.

هل أترك حبّى فريسة للقيل والقال؟..

يتحكّم فيه أهلى وأهلها، وآخرين بلا حصر ولا عد؟..

هل أنا مجنون حتى أضيّع ما وهبنى الله، وأسلّمه بيدى لمن لا حق له فيه، أُعطى ما أملك لمن لا يستحق؟!

ثم.. نقطة أخرى:

هل إعلان الزواج والفرح والمأذون.. والورقة الرسمية دلائل على الحبّ؟

طبعا تستغرب حبيبتى "جنّات"علاقاتى بنساء وبنات أخريات..

أنا أيضا أستغرب ذلك!

ولا أجد له شرحا محددا.. هل حبّى الأول وارتباطه بالجنس، جعلنى أعشق ممارسته، حتى مع من لا أحبّ ؟!

لست متأكدا، كل ما أعرفه عن نفسى هو أننى أدخل فى علاقات مع نساء وبنات أخريات، وأنغمس فيها، وأحس بالاكتشاف واللذة وروعة الأنثى.

ولعل الفن هو أحد الأسباب، لكن.. لا أظن أنه السبب الأول بدليل أن زملائى ومن أعرفهم من الفنانين، ليسوا مثلى، معظمهم أناس عاديون، متزوّجون أو غير متزوّجون.. ونادراً من يجمع منهم، بين أكثر من امرأة، فى وقت واحد.. مثلى.

أتذكّر أول علاقة مع إنسانة أخرى.. كانت فى الكلية، واحدة من الموديلات .. من أقدم موديلات الكلية..

كانت تساعدنى فى سنواتى الأولى، لا أعرف لماذا أنا بالذات؟..

عندما تنتهى من عملها، وهو الوقوف أو الجلوس فى وضع يحدّده لها الأستاذ أو المعيد وسط "الأتيليه" ونلتفّ نحن الطلبة حولها وأمام كل منا لوحته، لنرسمها بأقلام الفحم السوداء أو بألوان الزيت.

أمضيت أربع سنوات أرسم العاريات والعرايا، فقد كان هناك أيضا موديلات رجال.

وخلال هذه السنوات، ومن بدايتها نشأت بينى وبين"ماشالله" الموديل التى تكبرنى بمالا يقلّ عن عشرين سنة، حالة تقارب.. كانت معجبة بخطوطى، تقول لى إنه مرّ عليها مئات التلاميذ فى الكلية طوال أكثر من عشرين سنة، كلّهم رسموها، لكنّها فى مرّات نادرة أحسّت بالفنان داخل التلميذ. وبعض التلاميذ أصبحوا أساتذة بالكلية أو فنانين تشكيليين معروفين.

تنبّأت لى"ماشالله" وأنا تلميذ جديد فى "سنة أولى تصوير"- ثانى سنوات الدراسة بعد السنة الإعدادية- بأنه سيكون لى مستقبل كبير. ووعدتنى بمساعدتى لتحقيق ذلك.. ولم أفهم معنى وعدها، كنت أشعر بأنها امرأة طيّبة وغلبانة، وأشفق عليها، من هذه البهدلة، وأقول لنفسى إن "أكل العيش مرّ".

وقد يدهش أساتذتى الكبار عندما أعترف الآن أن "ماشالله" التى تتعرّى أمامنا كموديل، علّمتنى ونبّهتنى لبعض اللمحات الأساسية فى فن التصوير الزيتى والرسم والتكوين، وتناسب الفراغ والكتلة، والظل والنور، والأشكال، ودرجات اللون، والضوء وتدرجاته ودلالاته.. وزاوية الإضاءة فى اللوحة.. وطبعا جماليات الجسد الإنسانى عموما، والأنثوى خصوصا.

لم تكن بالطبع تلقى علىَّ محاضرات.. لكن ملاحظاتها وأحاديثها وحكاياتها عن الفنانين والأساتذة الذين لم نلحق بهم، وخفّة ظلّها وفلسفتها البسيطة مع الحياة والناس، جعلتنى أرغب فى الاقتراب منها أكثر..

عرفت قصّة حياتها.. ودعتنى لزيارتها فى بيتها، وأطلعتنى على لوحات لفنانين معروفين وأساتذة وهواة رسموها لها عارية تماما، فى صباها، وشبابها.

وتحدّتنى أن أنجح فى رسم لوحات أقوى وأجمل.. فقرّرت أن أخوض مغامرة، أرسم مجموعة لوحات تكفى لإقامة معرض كامل، تكون هى بطلتها،

ووعدتها أن يكون ذلك أول معرض لأعمالى.. وأن يضمّ ما لا يقل عن ٢٥، ٣٠ لوحة.

كنت فى العشرين تقريبا.. وكان عمرها ضعف عمرى تقريبا.

واتفقنا.. أتى إلى بيتها كلّما تيسّرت لى فرصة، تتعرّى هي، وأرسم أنا.

وكانت لها شروط.. لن تأخذ منى أى أموال، ولن تسمح لى بأن أطلع أى أحد على مشروعنا السرّى هذا إلا بعد اكتماله.

وأن آخذ وقتى، فلا أتسرّع- ولا أتباطأ أيضا- فى عملي.

كانت تعطينى فرصة عمري، درس خصوصي.. خبرة عمرها مع كل أساتذة أقسام التصوير.. والنحت والحفر.

وفكّرت أن"ماشالله"هى تعويذة نجاحى كفنان.

وبدأت وقتها أقول لنفسى إننى محظوظ بهذه المرأة، التى تحسّ بموهبتى المبكّرة، وتساعدنى فى تطويرها والتعبير عن لمستى الخاصّة كفنّان شاب يتطلّع إلى التجديد.

وعندما بدأت أضع خطط عملى معها، وتصوّراتى عن أفكار وتكوينات وموضوعات اللوحات، كنت أستمع إلى أساتذتى جيدا.. وأتحدّث إلى بعضهم وأناقش معهم أعمالا من كلاسيكيات فن التصويرالزيتى فى مدارسه المختلفة، وحتى أعمالهم هم.

وكان يستوقفنى كلام بعضهم عن ضرورة الإحساس بروح الشخصية التى تصوّرها فى البورتريه، وروح المكان، حتى تتمكّن من التعبير عنه بصدق وحرارة وعمق، وحيوية.

ومن حكايات "ماشالله"عرفت أنها تزوجت وفشلت فى زواجها بعد أن أنجبت ابنتها الوحيدة"لحظة". طلّقها زوجها وعاد إلى القرية، رافضا أن تكون دهنة امرأته هى التعرى بالساعات ليتفرّج عليها التلاميذ!

أثّرت فىّ كثيرا حياة "ماشالله".. أحسست أنها إنسانة مفعمة بالتجربة والمشاعر والحكمة البدهية، مع أنها لا تقرأ ولا تكتب، فقط "تفك الخط".. واكتشفت أن لها قدرات أخرى مدهشة، فهى تقرأ الكفّ..

عرفت عنها ذلك مصادفة، كنت أسلّم عليها لدى وصولى بيتها ذات يوم، فوجدتها تتحسّس باطن يدى.. وطلبت منّى أن أفتح كفّى، وبعد لحظة من التمعّن، وضعت كفّها على كفّى.. كما لو كانت طبيبا يضع السماعة على صدرى، وسكتنا برهة، ثم قالت لى أن علىّ أن أحافظ على مايسعدنى فى حياتى.

ولم أفهم كلامها.. ظننت أنها علمت بقصّتى مع"جنّات".. شرحت، لى أنها لا تعرف أن هناك"جنّات" أصلا.

وبينما كنت أواصل مشروعى معها، تلامست يدانا وكفّانا، اعتصرت كفّى بيديها، ثم احتضنتنى.. وكانت عارية، وأطلقت ضحكة صافية، ولأول مرة أحسّ بطراوة ثدى أنثى ناضجة، عفويّة، تلقائية، طيّعة كطين الأرض الخصبة..

"ماشالله" أمتعتنى .. قبلاتها حارة، وعناقها صاخب، واحتضانها مثير، فيه رغبة عارمة مغلّفة بشىء من الأمومة، حنان دافق وعطاء بازخ.

كنت أتعلّم رسم جسدها العارى فأصبحت أتذوّق طعم هذا الجسد.

علّمتنى فنون الممارسة الصحيحة للعلاقة الحميمة، وكانت تذوب بين ذراعى لوعة وروعة، والحقيقة أنها كانت فى شديد الحاجة إلى إشباع حاجتها، ولم تكن تقبل بالهوان، والمتاجرة فى جسدها.

والغريب أنها لم تشترط أو تطلب منى أى شىء، فقط تريد المتعة، والمؤانسة، والكتمان.

وخلال ممارستنا للعشق كان سلوكها رخيما، لا ابتذال فيه.

تعاشرنى كزوج كامل الأهلية، لا كتلميذ موهوب فى الرسم وله مستقبل.

وكانت تحبّ الملاطفة والتدليل والتمهيد والإثارة، كما كانت تحبّ النظافة، وتحتاط لكل شيء.

ومع ذلك جاء يوم انقلبت فيه الحال، واضطربت الأمور..

كنا نمضي الوقت بين الشغل على مشروعنا الفني واللوحات التي أرسمها لها، وبين العناق والمعاشرة، عندما جاءت "لحظة" فجأة، فوجدتنا في ذروة اللقاء.

هي ممدّدة على الأرض وتحتها مرتبة وأنا معها، هي عارية.. وأنا عار.

"لحظة"- واسمها "لواحظ"- هي ابنتها الوحيدة، تعيش معها معظم الوقت، ومع أبيها في القرية، من وقت لوقت.

لم تنطق الأم ولم تنطق البنت.. أصاب كلتاهما ذهول. وبالطبع لم أنطق أنا.

كان تحت "ماشالله" فرش سرير حريري غطت جسدها به على الفور.

وارتبكت أنا، وسحبت ملابسي من الأرض وهرولت إلى الحمام.. غبت فيه قليلا، قبل أن أعود بكامل هندامي.

لا أعرف ماذا جرى بين الأم وابنتها.

لكن صمتا مريرا ساد ثلاثتنا. وطال، إلى أن قطعته "ماشالله" وهي تخاطبني، دون أن تنظر نحوي:

- طب يا أستاذ.. نشوفك بكره بقي.

٣

«ماشـــالله»

يارب..

انقذ هذا الإنسان الفنان، ارفع عنه غضبك، وأعد له حياته.

يارب..

سامحه وسامحنى، خطايانا كبيرة، لكن ضعفنا أكبر..

يارب..

خذنى أنا إلى الغيبوبة، ودعه هو يواصل طريقه.

بكيت كثيرا.. كما لم أبك من قبل، عندما رأيت "سلطان" فى الغيبوبة.

هو بالنسبة لى ملاكى الحارس، وسبب استمرارى فى الحياة، شقيق روحى، وسلطان زمانى، هو الابن الذى لم أنجبه، والرجل الذى أحتاجه.

هو الأمل والرجاء، فى زمن خاب فيه كل أمل وكل رجاء.

عندما شاهدته لأول مرة وهو يضع لمسات فرشاته على اللوحة، أحسست أنه ملاك، تجسّد فى صورة فتى.. تلميذ جديد فى كلية الفنون.

وبدون أن أدرى، كنت أتتبع لمساته وأرصد حركته وكلامه وسكوته و..

اختلطت مشاعرى تجاهه، سعيدة به كفنان، كوردة تتفتح، ومفتونة به كشاب فتىّ عفىّ، جذّاب ورجولى الهيئة، أشتهيته.

ولاحظت شبهها بين ملامحه وملامح تمثال نصفى من الجبس بالحجم الطبيعى، وفتننى أكثر..

سألت عن التمثال - وهو واحد من عشرات التماثيل الموجودة بالكلية كوسائل تعليمية يرسمها الطلبة والطالبات، ونسمّيها نحن «موديل جبس» -

قالوا لى إنه نصف تمثال شهير من أهم أعمال "مايكل أنجلو" فنان عصرالنهضة الإيطالى العظيم. هو "تمثال داوود".

وفى مكتبة الكلية شاهدت مع أحد المعيدين صورة ملوّنة للتمثال العارى وقال لى إنه منحوت فى قطعة رخام واحدة بارتفاع ٦ أمتار.. وأن وزنه ٦ أطنان..

وكنت أقول لـ"سلطان":

- أنت "داوود"!

فلا يفهمنى.

أقول له:

- اذهب وابحث عن تمثال"داوود".

عندما وعدته بأننى سأعمل كل ما يمكن لتشجيعه على إثبات موهبته، فرح، لكننى كنت أشعر أنه لا يفهمنى.

ذات يوم طلبت منه أن يأتى لزيارتى فى بيتى لأريه أشياء قد تفيده فى دراسته.

وعندما جاء معى إلى"الغورية" كشفت له عن كنوزى.

وتعاهدنا على مشروع يحقّق به أول خطوة عملية لدخول عالم الفن.

فاكر يا"سلطان"؟..

كنت فى عزّ شبابك، وأنا كنت فى عزّ شوقى إليك.

محرومة من حقوقى كامرأة، وهل تكون المرأة مرأة، من غير رجل؟

لم أكن أبحث عن زوج، كنت أكره الزواج والأزواج.

كل ما أريده هو رجل حقيقي، يسعدنى وجوده حولى ومعى وداخلي.

يرعم أشواقى وينعش حواسى ويجعلنى أشعر أننى إنسانة ولست مجرد "موديل عارى".

مهنتى هذه عجيبة. عمرى ماتخيلت أبدا أن تكون هناك مهنة على هذه الصورة. لكن مجرى حياتى دفعنى لأجد نفسى أعمل بها..

والحكاية طويلة.. حكيتها لك كثيرا يا"سلطان".. وأحكيها لك الآن، فربّما تساعد حكاياتى فى استعادتك من بئر الغيبوبة.

كانت أختي"بهانة" أول من خرج من نساء قريتنا، إلى"مصر"..

تزوّجت من بوسطجى، يعمل فى "القاهرة"، لكنه مات فجأة.

فذهبت لأعيش معها، هربا من القرية.. لكن القرية جاءت ورائي..

تقدّم لى الرجل الذى أصبح فيما بعد، زوجي.

وعشنا مع "بهانة" وكان أجره من عمله يكفينا.

لكن أختى لم تقبل أن تكون عالة علينا.. بحثت عن عمل، فوجدت شغلانة فى كلية الفنون الجميلة، فى "الزمالك"، تقوم بأعمال النظافة فى المراسم "الأتيليهات" والفصول الدراسية والمكاتب..

وبعد فترة كانوا يبحثون عن موديل عارية، فتقدّمت "بهانة"..

قالت إنها مهنة بلا عمل..

– طوال النهار قاعدة، أو واقفة أو حتى نائمة.. وعموما آهى أرحم من تنظيف الحمامات والأتيليهات. والأهم أنها مهنة حرة، يعنى منين ما أحب أشتغل أشتغل، أبطّل أبطّل.. على هواى.. فيه أحسن من كده؟!

= لكن إزاى توافقى تتعري.. وأنت فلاحة بنت فلاحين؟.

سألتها، وأنا الأصغر منها، مستنكرة، فردّت:

– لو كان لى راجل، ماكنتش أوافق..علشان خاطر كرامته.

لكن أكل العيش مر..

وطبعا كانت أختى "بهانة" تخفى مهنتها الجديدة عن العائلة، والكل يعرف أنها عاملة نظافة.. وبعد فترة استطاعت أن تقنعنى بالعمل معها.. ولم

يعترض زوجي!.. فلم يكن يعلم أنني سأعمل فى مهنة تتطلب أن أبقى عارية لساعات وساعات، أمام حشد من المراهقين والمراهقات.

بعد سنوات اكتشف زوجي الأمر..

لا أعرف بالضبط حتى الآن، من الذى وشى بي، وأخبره.

كنت ذات يوم مطلوبة لدرس فى "أتيليه سنة رابعة تصوير" الدفعة التى ستتخرّج فى نهاية العام، وكان عليّ مساعدة الطلبة والطالبات فى مشروع لوحة عن أمنا "حواء"، وعلى كل طالب أو طالبة اختيار الزاوية المناسبة لفكرة لوحته، ومعنى هذا أننى - كما شرح لى رئيس قسم التصوير وهو أستاذ المادة - سأتعرّى، وأقف أمام الدفعة كما ولدتنى أمي، تماما كأمنا"حواء" وحتى من غير ورقة التوت، وبعد ذلك سيكون عليّ أن أتجاوب مع أفكار الطلاب وأقدّم لهم ما يحتاجونه من أوضاع و"بوزات".. فمن يريدنى جالسة أو نائمة أو حتى طائرة فى الهواء- حسب فكرته ولوحته- سألبّى رغبته.

وبدأت بالمثول أمام الجميع فى وضع الوقوف، وانهمكوا يضعون خطوط الفحم على لوحاتهم.. ويدقّقون النظر فى جسدي، ويضبطون بعيونهم وأصابعهم السبّابة نسب جسمى إلى نسب اللوحة.

عمّ الهدوء المكان بعد فترة، وانشغل كلّ بلوحته، وغاب رئيس القسم خارج الأتيليه، وأنا واقفة عارية تماما.. لم أكن أسمع سوى صوت خافت جدا، لراديو ترانزستور، تحبّ إحدى الطالبات الاستماع إلى الموسيقى والأغانى من خلاله..

ولولا صمت الجميع، وانهماكهم فى لوحاتهم، لما وصل إلى آذانى:

أعطنى النـاى وغنّى فالغنا سـرّ الوجـود
وأنين النـاى يبقى بعد أن يفنى الوجـود
هل أخذت الغاب مثلى منـزلا دون القصـور

فتتبعت السواقى وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر وتنشّفت بنور
وشربت الفجر خمرا فى كؤوس من أثير
هل جلست العصر مثلى بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت كثريات الذهب
هل فرشت العُشب ليلا وتلحّفت الفضاء
زاهدا فى ما سيأتى ناسيا ما قد مضى
أعطنى الناى وغنى وأنس داء ودواء
إنما الناس سطور كتبت لكن بماء

صوت "فيروز" الروحانى أشاع جوا ناعما، يسمح بالسرحان ويفسح المجال للخيال، والهدوء وانهمك الجميع فى لوحاتهم..

انتهت الأغنية، فهمس البعض مطالبين بإعادتها، فلما اعتذرت صاحبة الترانزستور بأنها ليست تسجيلا، وإنما كانت مذاعة مصادفة، انطلق صوت هامس يردّد كلمات الأغنية ويغنيها بطريقة "فيروز" الناعمة..

واندمج الجميع فى عملهم، بسعادة وواصلوا الإنصات للأغنية بصوت زميلهم الذى كان يرسم ويغنى برقة وسلاسة.. واندماج.

دى آخرتها يا"ماشالله".. جبتى العار لجوزك ولأهلك، أنا لازم أخلّص عليك حالا، وأمسح عارى منك!

عريانه ملط يا"ماشالله"؟!

نهايتك على ايدى.. يا"ماشالله"

انقلبت الحال وأصابت الجميع صدمة المفاجأة، رجل ريفى خشن المظهر والملبس واللكنة، يندفع بتهوّر وعدوانية من باب الأتيليه إلى وسطه حيث

فتتبعت السواقى وتسلّقت الصخور
هل تحمّمت بعطر وتنشّفت بنور
وشربت الفجر خمرا فى كؤوس من أثير
هل جلست العصر مثلى بين جفنات العنب
والعناقيد تدلّت كثريات الذهب
هل فرشت العُشب ليلا وتلحّفت الفضاء
زاهدا فى ما سيأتى ناسيا ما قد مضى
أعطنى الناى وغنى وأنس داء ودواء
إنما الناس سطور كتبت لكن بماء

صوت "فيروز" الروحانى أشاع جوا ناعما، يسمح بالسرحان ويفسح المجال للخيال، والهدوء وانهمك الجميع فى لوحاتهم..

انتهت الأغنية، فهمس البعض مطالبين بإعادتها، فلما اعتذرت صاحبة الترانزستور بأنها ليست تسجيلا، وإنما كانت مذاعة مصادفة، انطلق صوت هامس يردّد كلمات الأغنية ويغنيها بطريقة "فيروز" الناعمة..

واندمج الجميع فى عملهم، بسعادة وواصلوا الإنصات للأغنية بصوت زميلهم الذى كان يرسم ويغنى برقة وسلاسة.. واندماج.

دى آخرتها يا"ماشالله".. جبتى العار لجوزك ولأهلك، أنا لازم أخلّص عليك حالا، وأمسح عارى منك!

عريانه ملط يا"ماشالله"؟!

نهايتك على ايدى.. يا"ماشالله"

انقلبت الحال وأصابت الجميع صدمة المفاجأة، رجل ريفى خشن المظهر والملبس واللكنة، يندفع بتهوّر وعدوانية من باب الأتيليه إلى وسطه حيث

٤

«سلطـــان»

هل تشعرين بى الآن يا"ماشالله"؟..

هل تعرفين مكانتك الخاصة عندي؟..

لولاك لما بدأت، من وقت مبكّر أشعر بأهمّيتي، وموهبتى الكبيرة، وأعمل ليل نهار لتطويرها ودعمها بالمعرفة والثقافة والخبرة.. والعمل المتواصل.

لولاك لا أعرف ماذا كان سيحدث لي؟..

ربما أصبحت مجرد طالب عادي، وليس أحد الفنانين البارزين الذين تخرّجوا من الكلية على مدى تاريخها، كما قال أستاذي"حسن الصوفي".

لقد حوّلت بيتك إلى مرسم وأتيليه وكلية خاصة بى وحدي.

وأصبحت فنانا معروفا على صفحات الصحف وفى أوساط الفن التشكيلي، ولدى النقاد ومحررى الثقافة والفنون بالصحف والمجلات، بعد معرضى الأول الذى كنت أنت بطلة لوحاته كلها. وكنت ملهمتى لفكرته، وكلها لوحات أنجزتها فى بيتك.. في"الغورية".

تحققت لى الشهرة بهذا المعرض، بينما أنا طالب ما أزال، بالسنة الثالثة بالكلية. وهذا لم يحدث قط لأى فنان.

وعملت بالصحافة ونشرت لوحاتى على أغلفة مجلة "الوعد" التى يحبّها الناس.. ومنها لوحة لك، وضعت عليها اسمك "ماشالله"..

وعندما سجّل التليفزيون برنامجا خاصا معى كواحد من الفنانين التشكيليين الجدد، لم أنس الإشارة إليك وإلى الثقة والخبرة التى نقلتها لى، طوال سنوات الدراسة، وحتى الآن.

فأنا مدين لك بالكثير..

٥
«لحظـــة»

فى حياتى كلها لم أر رجلا وامرأة فى عناق ومعاشرة وحبّ، سوى مرة واحدة، وللفضيحة فالمرأة كانت أمي.. وكان الرجل، شابا صغيرا فى سنّى تقريبا!..

كنت قد رأيته أكثر من مرة خلال وجودى مع أمى فى عملها بالكلية.. كانت تصحبنى معها، وشجّعتنى على العمل فى مهنتها، لكن دون أن أتعرّى.

المنظر الذى لاينمحى من ذهنى أبدا، جعلنى - من أول وهلة - أشعر بأن أمى سقطت، أصبحت فاجرة.. خفت على نفسى من البقاء معها فى البيت نفسه، وفكرّت فى العودة إلى قريتنا لأعيش هناك إلى الأبد، تماما كما فعل أبى..

وشعرت بأن هذا الرجل الصغير- عرفت فيما بعد أن اسمه "سلطان سعيد"- مجرم ينتهك حرمة أمي. ويؤذى شرفها وشرفي.

إلا أن أمى شرحت لى كل شىء، فيما بعد.

فهمت منها أنها بعد الطلاق، عاشت أزمة محيّرة، فهى لا تريد أن تعرض جسدها على الرجال وتصبح مومسا، لأنها تعتز بكرامتها. ولا تريد أن تتزوّج وتعيش مشكلة جديدة مع زوج جديد يرفض عملها أو يشك فى سلوكها.

قالت لى أمى:

ومين يعنى حيرضى يتجوّز واحدة زيي؟.. بتتعرّى قدّام الناس بالساعات، كل يوم؟..

كنت صغيرة ولا أفهم كل شيء، لكننى أحسست بالاطمئنان على أمى.

سألت نفسى: لوكنت فى ظروفها ماذا تفعلين يا"لحظة"؟

وكرّرت نفسى، ماقالته لى أمى:

كرامة أمك محفوظة، وحقها محفوظ، لكن الحياة صعبة.

وواجب علينا نتحايل على مصاعبها.. إذا كنا عايزين نعيش.

أفهمتنى أمى أنها لا تعاشر سوى هذا الفتى- الذى تسميه "داوود".. لا أعرف لماذا، مع أن اسمه "سلطان"؟!- وأن مايتم بينهما هو سرّ.. واستحلفتنى أن أحفظ سرّها.

وقالت لى إنها لا تريد منه شيئا وأنه فنان موهوب وله مستقبل كبير.

وأنه لا يريد أن يتزوّج، لا من أمى ولا من غيرها.

كانت أول وآخر مرة فى حياتى أرى بعينى رجلا وامرأة فى عملية معاشرة..

واستهوانى مارأيت.. وأحسستّ برغبة قوية، مكتومة، فى أن أكون على علاقة برجل.. شاب مثل"داوود"هذا.. أقصد "سلطان سعيد".

ولم أتصوّر أن الأيام ستدور بسرعة وتجعلنى أنافس أمى على هذا الرجل بذاته.

أنت تعرف الحكاية يا"سلطان".. ولا أريد أن أزعجك بها من جديد، لكن السنين تمرّ والحكاية مستمرة.. وهناك أشياء لم أعترف لك بها بعد..

لكن، هل كان لحكايتنا تأثير عليك، وعلى صحتك إلى هذا الحد؟..

هل أنت فى غيبوبة بسبب حكايتنا معا؟..

لا أظن، فهى ليست حكاية جديدة.

فماذا ياترى، أدخلك الغيبوبة؟..

هل أردت أن تهرب منى؟.. هل كانت أمى وغرامها بك، السبب؟

أم أنها"جنّات"حبك الأول والأخير ؟..

أم تكون"هدى" المرأة الغنية، ساكنة "الزمالك"هى السبب؟

لا أعرف..

لكننى أتمنى من الله أن يخرجك من أزمة الغيبوبة، ويعيدك لنا.

وأنا شاكرة لك فضلك الكبير علىّ.. حتى أصبحت الفنانة التشكيلية التلقائية "لحظة".. رعايتك وتشجيعك واحتضانك لموهبتى، تجعلنى أحطّك دائما على رأسى من فوق..

وأعدك بألاّ أعذّبك بطلباتى ورغباتي، وخاصة رغبتى فى الانفراد بك وتخليصك من كل الأخريات.

يجب أن أترك لك الحرّية، ويكفى أننى فرضت عليك نفسى، وأوقعتك فى شراكى، وأنك، كما قلت لى، لم تكن ترغب فى معاشرتى، احتراما لمشاعر أمى.

فأنت تحترمها وتحافظ على شعورها.. وتعتزّ بها.. وتعاشرها..

وكان كل هذا يثير شهوتي، أشتهيك أكثر.. أحسد أمى عليك.. أشعر بالغيرة منها، وأشعر بأننى الأولى بك، فأنا عمرى من عمرك.. وأمّى كبيرة عليك.. ربما فى عمر أمّك.

وربما لا تعرف يا"سلطان"... هل تسمعني؟!

أقول إننى تآمرت على أمّى، وقرّرت أن أسرقك منها.. وأن حكايتنا لم تكن بالعفوية والمصادفة التى تعرفها، لقد غرّرت بأمّى وجعلتها تسافر إلى البلد، لكى أنفرد بك.

كان علىّ أن أفعل شيئا، فالغيرة والحسد والعذاب الذى عشته كل يوم خلال السنة أو السنتين اللتين كنت تقيم فيهما فى بيتنا، إقامة شبه دائمة، والعلاقة الساخنة بينكما، والحبّ الذى كنتما تمارسانه فى الغرفة الملاصقة لغرفة نومى، كل هذا جعلنى لا أفكّر إلا فيك أنت، ولا أحد غيرك.

هل أردت أنا أن أنتقم من أمي؟..

لا أدرى.

هل استسهلت وجودك بيننا وفى بيتنا؟..

لا أدرى.

هل لأننى عرفت لماذا تسميك أمّي"داوود" ورأيت التمثال وقرأت عن مبدعه، وشاهدت صورته الكاملة فى كتاب؟

أم لأننى بدأت أحبّ الفن والرسم وكنت أتطلّع لعلاقة معك تساعدنى فى دخول هذا العالم المثير؟..

لا أدرى.

كل ما أعرفه هو أننى استطعت استمالتك، وإثارة شهيتك الجنسية نحوى.

وحطّمت تحصيناتك، وقرارك عدم الاقتراب منى حفظا لكرامة أمّى.

جعلتك تبحث عنى.. وتشتاق لعناقى، وتسعد بممارسة الحبّ معى.

استخدمت الحيلة والقدر المحدود من التعليم الذى حصلت عليه.. وغريزة الأنثى.

وأيضا استخدمت شبابى وفتوتى وجمالى وحيويتى.. وجنونى، وقدرتى العالية على الإثارة التى ربما أكون تعلمتها من أمى!

٦

«سلطـــان»

الحياة ليست لعبة.

قد تكون مغامرة.. دراما، رحلة، اختبارا.. لكنها ليست لعبة يا"لحظة".

أنت تتعاملين مع حياتك، وحياة الآخرين كما لو كانت لعبة، مقامرة، منافسة، أو تسلية لتمضية الوقت بأى شكل، أيا كانت النتائج.

ولديك قدرة كبيرة على الاستهانة بكل شىء.

فكرّت كثيرا فى أسباب تكوّنك على هذه الصورة الهوائية..

هل لأنك عشت حياة عائلية ممزّقة، بعد طلاق والديك؟. ولأن لديك طاقة حيوية أعلى من أى إنسانة من سنك.

هل لأنك استمتعت بحرية "سداح مداح" لأنك تعيشين فى بيتين، مرة مع أمك فى "الغورية"، ومرة مع أبيك فى البلد؟

هل اكتسبت حريتك السائبة من جو الأزمة بين الاثنين وبُعد المسافة بين البلدين.. والبيتين؟

تغيبين عن بيت الأب بدعوى أنك عند الأم. ولست فى بيت الأم بدعوى أنك عند الأب!

لكن أين أنت؟..

إلى أين كنت تذهبين؟.. وماذا كنت تفعلين؟

وكيف تعلّمت فى سنّك الباكرة كل هذه الألاعيب.. المراوغة والخداع والكذب والتحايل؟

قلت لى مرة إنك شعرت بأنك غارقة في"بحر النيل"..عندما انفصل والداك..

فهل جعلك شعورك هذا تعيشين حياتك لحظة بلحظة، يا"لحظة"؟!

هل تشعرين حتى الآن ذات الشعور بالغرق؟..

أنت بالفعل غارقة، ليس فى "بحر النيل" - كما تقولين - لكن فى بحر آخر.. بحر الغريزة، بحر الشبق، بحر اللّذة، بحر العطش للحنان، للعناق، العطش للحبّ.

فقدت حبّ والديك، فتطلّعت لحبّى.

كنت تعلمين أننى أعشقك، ليس حبّا، ولكن يثيرنى شبابك وفتوتك وعنفوانك، وفوران جسدك.

وتعلمين أننى على علاقة بأمك. وأننى أحافظ على كرامتها وشعورها..

ومن هنا كنت أرفض الاقتراب منك.

حاولتى مرّة ومرّات، أن تضعينى فى موقف القبول بالأمر الواقع، وبأنك سهلة ومتاحة ومثيرة، وطازجة وجريئة، وملتهبة.

وأحجمت عنك، فى كل مرّة، بل زجرتك.

تسللت إلىّ من مدخل جديد، يجذبنى، ويعجبنى، قلت إنك مستعدة لأن تقفى أمامى عارية تماما، لأرسمك. وكنت تعرفين أن من نرسمها كـ"موديل عارية" فى الكلية، لا بد وأن تكون قد تجاوزت الأربعين.

وكنت كدارس للفن، أفتقد وأتشوّق لدراسة جسد الأنثى فى بواكير شبابه.. وطزاجته.

ووقعت فى شباكك الماهرة.

أما أنك شاكرة لمساعدتى لك، فأنا لم أفعل شيئا سوى اكتشاف موهبتك..

ولو لم تكن لديك موهبة.. ولغة تشكيل خاصة بك، لغة بريّة تلقائية، فيها سذاجة جميلة وبراءة غريبة وعمق نفسى غائر.. وهذا ليس كلامي، بل رأى النقاد المصريين والعرب والعالميين، الذين يكتبون عن أعمالك ومعارضك هنا وفى الخارج.

فالفضل لله الذى منحنا مواهبنا، وقدّرنا على اكتشاف ورعاية مواهب الناس.

أما عن حرّيتى التى تتحدّثين عنها، فأنا لم أفقدها، ولم أضيّعها، ولا أنتظر من أحد أن يمنحنى إياها.. لكن فى الوقت نفسه، لا أعرف هل أنا حرّ فعلا؟!

الحرّية ليست ملكية فردية، لو كنت حرًا فى بلد غير حرّ.. ما الفائدة؟..

حرّ فى مجتمع معاد للحرّية!.. الحرّية يا "لحظة" كالماء والهواء، لايمنحنا إياها أحد، ولا يستطيع أن يسلبنا إياها أحد، إلا لو تخاذلنا نحن.. ولم ندافع عن حقنا فيها..

وأنت لم تكونى مؤذية لي، ولم تفرضى نفسك علىَّ، وعموما أشكرك على كل شىء..

٧

«هـــدى»

لا أصدّق..

هل يُعقل أن يكون "سلطان" فى غيبوبة؟!

أجلس أمامك، وأنظر إليك، ولا أصدّق.

الغيبوبة.. وأنت، لا تجتمعان.

فأنت الحياة والحيوية والعنفوان والصحة والجنون والفحولة والرجولة والقوة واليقظة، والرقة، والفن والروعة..

فماذا حدث؟.. ماذا جرى؟.. وكيف جرى ماجرى؟..

لا أحد يتصوّر أن يحدث لك ماحدث.

ولا أعرف كيف ستمضى حياتى وأنت فى غيبوبة.. مع من سأتبادل حديث الثقافة والفن. لمن سأتعرّى، وأبوح.. ومن سيصوّر مكنوناتى و"روحي" على مسطح اللوحة ومع من سأستمتع باللقاء الحميم والعشق الحار، واللّذة النادرة؟..

منذ عرفتك، عرفت معنى وجودي. أحسّست أن خيانة زوجى لي، كانت نعمة، وكنت أظنّها نقمة.. "رُبّ ضارّة نافعة".. وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم..

كان المفترض أن أكون أنا الخائنة. لما اشتهرعنى بين أهلى ومعارفى عن شقاوتى وحبّى للرجال.. بعض نساء عائلتى يعتقدن أننى ربما أحبّ الجنس أكثر من الحبّ.

لكننى بعد الزواج عاهدت نفسى على الإخلاص لزوجي، صحيح أننا لم نعش قصة حبّ، وأننا أقارب.. وأن زواجى تمّ ضمن صفقة ما بين عائلتى

وعائلته. لكننى عندما اقتربت منه قبل الزواج، أعجبت به، بهدوئه ودماثته، وأيضا برجولته وفحولته.. ولما أعلنت قبولي، كنت قد اتخذت مع نفسى قرارا: انتهى عهد اللعب والتنطيط.

قلت لنفسي: اهتدى بالله يا"هدى".. لعبت كثيرا، وجاء وقت الجد.

لا أعرف إن كنت حكيت لك كل هذا أم لا يا"سلطان"؟..

لكننى أجدنى بحاجة لأن أكشف لك عمّا لم تعرفه عنى من قبل، أعرف أنك فى الغيبوبة، لكننى قرأت وسألت أطباء وخبراء، قالوا لى إن وقوع الإنسان فى الغيبوبة لايعنى بالضرورة ألاّ يكون قادرا على الإحساس والاستماع وربما الإدراك..

بعض البحوث كشفت عن أن من يقع فى الغيبوبة، ربما يكون مصابا فقط بعدم قدرة عضلات جسمه على إدارة هذا الجسم وتحريكه. أو أن جهازه العصبى فقد الصلة بالمركز الذى يحرّكه فى المخ..

وهناك من توصّل إلى أن الحديث معه، قد يساعد فى إخراجه من هذه الحالة المخيفة.. وطبعا هناك وقائع وقصص عن أناس عاشوا فترات فى الغيبوبة وخرجوا منها، وعادوا لحياتهم الطبيعية، وكأن شيئا لم يكن.. ليت ذلك يكون حظّك مع هذه الغيبوبة التى لا أعرف لها سببا معك.

سأحاول أن أفهم من الأطباء ماذا يعتقدون أنه جرى لك..

مع أنهم ميالون إلى التحفّظ.. ويتصرّفون كالدبلوماسيين، يقولون كلاما كثيرا فضفاضا، بلا معنى واضح، محدّد.

هل أنت معى يا"سلطان"؟..

كم أفتقد أيامنا معا.. سهراتنا الماجنة ومناقشاتنا الساخنة..

أتذكّر الآن أول مرة شفتك.. كنت تقدّم نفسك لأول مرة فى معرض.. فى قاعة "أخناتون" على ما أذكر.. شاب صغير، فنان جديد، خطوطه مميزة. عنوان المعرض هو الذى جذبنى إليه- قبل أن أراك طبعا-"حواء.. أسرار وأغوار".

كان معرضك الأول مغامرة جريئة من طالب فنون جميلة لم يتخرّج بعد.

كنت، عندما ذهبت لمشاهدته، أعيش أزمة وجود..

أكتشفت خيانة"أحمد".. هزّتنى، زلزلتنى.. أحسست أن الأرض ستنشق وتبتلعني.

فكّرت أننى ملعونة، وأن الأقدار تعاقبنى على شقاوة المراهقة.

كانت أزمة وجود بالنسبة لي، فأنا لا ينقصنى شيء.. جمال وتعليم، وثروة، وكله.

فما الذى يدفع "أحمد" لخيانتي.. كنت مطيعة ومهذّبة ومقبلة عليه، وأحترمه، وأحرص على مشاعره.

ولم أتصوّر أبدا أن يحدث منه ماحدث.. العكس هو الذى كان متوقعا.. بعض من يعرفوننى من أيام الشقاوة، قالوا لى – بعد خيانة "أحمد" لى– إنهم كانوا يخشون أن تقع الخيانة منى.

ومع ذلك.. كان يمكننى أن أسامحه، لو أنه جاء واعترف بشجاعة وطلب العفو والسماح.

لم يحدث هذا.. كابر"أحمد" وأنكر. لكنّه أضطر للاعتراف بعد أن جئنا بالبنت وواجهناه بها وحكت الحكاية بالتفاصيل المملّة.

بنت سكرتيرة صغيرة، غلبانة، تعمل لديه فى مكتبه.. أغواها أو أغوته هى، لا أعرف. وكان ماكان.

لماذا أحكى لك مأساتى القديمة هذه، الآن؟..

لأننى أريد أن أحرّك مشاعرك، وأنبّه حواسك وعقلك.. لعل فى ذلك تمرين لها كى تستعيد قدراتها، وتعمل بكل طاقتها فتعيدك إلينا.

تعيدك لى..

مشتاقة لك يا.."سلطاااااااااااااااااااااااااااان"!

٨

«سلطـــان»

ياهدى الحيران
فى ليل الضنى
أين أنت الآن؟..
بل أين أنـــا؟
لم أكن أظن أنك ستزورينني يا"هدى"..

لو كنت أعلم أن زيارتك الكريمة، تقتضى منى أن أروح فى الغيبوبة.. لرحت فيها من زمان!

كنت أظن أن سرّية مابيننا ستمنعك من الظهور العلنى معى فى أى مكان.. حتى هنا فى المستشفى، وحتى وأنا فى الغيبوبة!

هذه مغامرة منك، ويبدو أن لى عندك مكانا محفوظا. وهذا يسعدني.

ولعلك تعرفين أن لك عندى مكانة لا مثيل لها، فأنا لا أنسى من عاوننى وهيأ لى الظروف والفرص.. والإمكانات، حتى أقف على قدمى فى فنى الذى أحبّه وأخلص له ولا أخونه، ولا أقصّر فيه..

لا أنسى أول يوم رأيتك فيه، وكيف أنك كنت فى غاية الاندهاش من أن يكون صاحب المعرض واللوحات التى تقدّم دراسة تشكيلية، نفسية، فلسفية، جمالية، عن المرأة، ليس إلا طالب فنون جميلة لا يتعدّى عمره العشرين بأكثر من سنتين أو ثلاث؟!

وأنك انتظرت حتى خلا المكان من الزوّار، والأصدقاء والزملاء والزميلات.. وكانت "جنّات" قد تركت قاعة المعرض، لتعود إلى بيتها فى وقت مبكر.

بادرتينى بسؤالك المندهش هذا.

وحاولت أن أشرح لك وقتها أننى أقرأ كثيرا، وأدرس بتبحّر، وأننى واخد الحكاية جد.. وباشتغل وأفكّر وأسأل وأبحث وأجرّب وأرسم"سكتشات".. وأحضّر عملى بعناية وجهد.

لكنّك بدوت غيرمصدّقة لكل ما أقول.

كنت تظنين أننى أقلّد أحد الأساتذة الكبار أو الفنانين العالميين.. وحاولت أن تسرّبى لى شكوكك هذه بطريقة حرصت ألاّ تؤذى مشاعري.

قلت إن اللغة التشكيلية فى لوحاتي، لغة ناضجة، لغة خبير بالنساء.. لكن الفنان صاحب اللوحات أصغر من أن يكون قد اكتسب كل هذه الخبرة والتعمّق فى أغوار حواء.. ومحاولة فهم أسرارها، كما هو عنوان المعرض.

ولا أعرف هل قصدّت أن تتحدينى وتستثيرى مشاعرى وتستفزى شيئا ما بداخلي، أم أن كل ذلك ورد تلقائيا، من وحى اللحظة؟

ومع أنك بعد فترة، أظهرت لى نوعا من الإحساس بالثقة فيّ.. والإعجاب بموهبتي، فقد سمحت لى بأن أخوض فى حياتك، عندما قلت أنك تجدين نفسك بدرجة ما فى إحدى اللوحات.. وقمنا نعيد النظر إلى اللوحة المقصودة، وحدّثتك عنها، قلت:

أنا هنا أحاول رصد لحظة إحساس المرأة بالفقد.. فقد الحبيب أو الزوج.. رفيق رحلة الحياة..

وقطعت كلامى فجأة.. توقفت عن مواصلة الشرح، عندما لمحت دمعة تتبلور فى مآقى عينيك.

ووجدت نفسى أحتضنك وأربت على ظهرك، وانفجرت أنت ببكاء أسيان.

ورويت لى عن معاناتك وشعورك بالضياع، خلال رحلة عودتنا بسيارتك، من قاعة المعرض في"قصر النيل" إلى بيتك فى"الزمالك".

طوال هذا الوقت لم يكن فى خاطرى سوى شيء واحد هو أنك إنسانة مثقفة، ومحبة للفن.. وأنك فى أزمة.

وأن المصادفة جعلتك تفضفضين لى عما يختلج بداخلك.

لم أفكّر فيك كامرأة جميلة، ولا حتى كامرأة غنية.. وعندما رويت لى قصة زواجك، وخيانة زوجك لك، وطلاقك، لم يكن الأمر بالنسبة لى أكثر من مجرد.. فضفضة من جانبك، وحسن استماع من جانبي.

وعندما ركبت معك سيارتك، ركبت لأنك متجهة إلى"الزمالك" وهذا طريقى، فأنا عائد إلى الكلية، لدى لوحة دراسية أسهرعلى تنفيذها.

وعندما وصلنا أمام الفيلا، وجدتك تلحّين علىّ أن أصعد معك لتناول الشاى أو القهوة.. قلت أن هذه أبسط تحية واحتفال بى و بمعرضى الأول.

لم أكن أعرف أن "دخول الحمام مش زى خروجه".

لم أكن أتصوّر أنك ستقدّمين لى كل هذا الذى قدّمته.

فى ليلة واحدة اشتريت منى ٤ لوحات. ووعدتنى بأن تدبّرى لى مكانا فى بيت تملكينه ضمن ميراثك، في"خان الخليلي" ليكون مرسما لي.. قلت إنه مخزن قديم لايستعمله أحد، ولم تكتفى بكل هذا، ففى آخر الليلة، أقصد فى صباح اليوم التالي، كان لك مطلب أخير.. أن أرسم لك بورتريه.. لوحة شخصية كبيرة.

قلت لى إن هذه اللوحة سوف تجعلك تستعيدين شعورك بذاتك.

هل تعرفين ماذا كان شعورى عندما غادرت بيتك فى الصباح التالي؟..

ربما لم تأت مناسبة أشرح لك فيها شعورى هذا..

أحسّست أن طاقة القدر فتحت لى فى تلك الليلة..

غمرنى شعور بأن طريقى مفروش بالورود.. وأننى من الآن أستطيع أن أعتبر نفسى فنانا.. فلوحاتى تباع، وسيكون لى مرسمى الخاص.. وهناك من يطلب منى أن أرسمه فى لوحة بفرشاتى وبأسلوبى الخاص .. وبمقابل!

وطبعا أخجلنى سؤالك عن المبلغ الذى أطلبه مقابل البورتريه..

فلم أكن قد رسمت أحدا بمقابل.. ولهذا قلت:

– أنا ما بارسمش بفلوس.

– لكن دى لوحة خاصة، مش للمعرض الجديد.

كنت فى حيرة، فانأ أحتاج للمال، لكننى لا أتطلّع للعمل كفنان تجاري، يستأجره الأغنياء ليرسم لهم لوحات لايراها الناس.

فكّرت أن بعض أساتذتى الكبار يكاد يكون متخصّصا فى هذا المجال.. وأن بعضهم الآخر يرسم لوحات زيتية بورتريه لشخصيات معروفة أو غير معروفة – وليس لموديلات– ويعرضها فى معارضه ولايسلّمها لمن رسمهم.. أو يسلّمها ويتقاضى مبالغ كبيرة، بعد فترة يكون قد عرضها فى معرضه الشخصى أو معارض أخرى مشتركة.

وفكّرت أن من أساتذتى من يرفض تماما فكرة أن يكون "تحت الطلب".. ويكتفى بأن تباع لوحاته لمن يحبّ الفن، لا لمن يحبّ نفسه!

شاركتك أفكاري.. وتناقشنا ولاحظت وأنا أحدّثك عن فن البورتريه وتاريخه وكبار مبدعيه، وحكاياتهم مع الطبقة الأرستقراطية وملوك وأمراء عصورهم، أن لك إلمام بمعظم ماتحدّثت عنه، واستغربت الأمر.. فانا أعرف كل هذا لأننى فنان ودارس للفن وتاريخه ومدارسه.

– لكن أنت.. إيه سرّ اهتمامك بالفن التشكيلى يا"هدى"؟

سألتك ونطقت اسمك لأول مرة خلال سهرتنا الطويلة، بلا مجاملات.. أعرف أنك أكبر منى سنا ربّما بعشر سنين أو أكثر أو أقل.. لكننى لم أقل يا"هدى هانم".. أو يا"مدام هدى"!

ولاحظت سعادتك بذلك..

كنت مستريحة لى، وعلى طبيعتك. وسعيدة بالتواصل مع إنسان آخر..

وفهمت أنك متعلّمة ومثقفة وتهتمين بالفنون والآداب والموسيقى.

وأنك لاتعملين.. ولاتبحثين عن عمل، لأنك وارثة وحيدة لأملاك والديك.

وتمضّين أوقاتك فى ممارسة هواياتك هذه.

٩

«سمـــاء»

العالم ضيّق..
ووقتنا فيه، ضيّق
عالم وحشى
يفاجئك كل لحظة بلطمة
فهل خلقنا
مصدّات للطمات؟!
ورق الشجر يتساقط
الخريف جاء فى الربيع
النهر توقف مجراه
وفؤادى يقطر دما
جفّ نهر الحبّ ..
ونهر الخوف يفيض
وأنا لا أعرف أينني
جفّ النهر
فسبحت فى رمال متحرّكة
ماذا جرى يا"سلطان"؟..
لماذا أنت هنا؟..
ليس هذا مكانك.. اذهب بعيدا
هل أنت فى غيبوبة فعلا؟..

أم هى لعبة إثارة عواطف الجنس الآخر؟..
لعبة الفوز بقلوب العذارى.. عذراء، وراء عذراء، وراء عذراء.
تلعب بعواطفهن.. ثم تتركهن تائهات فى متاهاتك اللا متناهية النهايات؟
أقول لك الحقيقة ياعزيزى..
لم أكن أنوى الحضور إلى هنا.
فأنا مقطوعة الصلة بك من زمان،
لكنى جئت؟..
لا أعرف من أين.. ولكنى أتيت؟..
كيف جئت؟.. كيف أبصرت طريقى؟..
لست أدرى!
ربما هـزّنى أنك - كما بلغني- وقعت فى بئر الغيبوبة.
قل لى يا"سلطان".. ماذا أوقعك؟.. من أوقعتك؟
أرجو أن تكون تسمعنى الآن، فعندى لك كلام كثير، وقد انقطعت عنك من سنوات.
أحتفظ بمشاعر مضطربة نحوك.. لا أريد أن أقول إننى أكرهك، ولا أريد أن أقول إننى أحبّك.
كنت أحبّك.. وكرهتك، ثم قررت ألا أكرهك. ربما لأننى لازلت.. أحبّك.
كلام مرتبك ومضطرب.. صحيح. فأنا من زمان مرتبكة ومضطربة.. فماذا تنتظر أن يصدر منى؟!
أصبتنى بعقدة لم أجد لها حلًا حتى الآن.
عندما تعارفنا، كنت بالنسبة لى مجرد واحد من أعزّ أصدقاء أخى "سمير".. كلّمنى عنك كثيرا.. فهو يحبّك، ومعجب بموهبتك الفنية ويرى أنك طليعى.
لم أكن أميل إليك، مع أنك كنت تأتى لبيتنا كثيرا وتذاكر مع "سمير" عندما كنا جيرانا فى حى"عابدين".

لم يكن يعجبنى أنك هيمان وسرحان، وفى دنيا غير الدنيا.. كنت أراك تائها.. ولم أكن أحبّ هذا التوهان، إلى أن شاهدت بعض لوحاتك المدرسية، واللوحة التى رسمتها لـ"سمير" بألوان الباستيل.. عندها، عرفت أن لك حق فى التوهان.. وطلبت من أخى أن ينقل لك رغبتى فى أن ترسم لى لوحة مثلها.

ويبدو أنك لم تكن راغبا فى ذلك، لكنك وقعت فى حرج شديد، فـ"سمير" بالنسبة لك أكثر من أخ.. ولا تستطيع أن تردّ له طلبا.

شعرت أنا بكل هذا..

وجدتك تعاملني، وترسمني، وكأننى واجب إجباري.. ورطة.

وألمحت لك بشعوري، قلت إننى لا أريد أن أتعبك، أو أجعلك ترسمنى مكرها لمجرد أننى شقيقة صديق عمرك.

يومها فوجئت بك تقول إننى صعبة.. وعصيّة على الرسم!

وخفت أن يكون كلامك هذا إشارة إلى أننى لا أتمتع بالجمال الذى تشترطه فيمن ترسمها..

أعرف طبعا أننى لم أكن جميلة الجميلات.. لكن أعرف أيضا أننى لم أكن قبيحة.. يعنى معقولة، طويلة أكثر من اللازم، ونحيفة بالنسبة لطولي..

وليست لى مفاتن بارزة، وأرتدى نظارة، وأثرثر كثيرا. وأقرأ كثيرا.. وأتفلسف، وأكتب الشعر بطريقة لا تتبع أى مدرسة أو مذهب أو طريقة.

ولا أحب الهزل.. ولا إضاعة الوقت فى ما لا يفيد.

وكانت زميلاتى تضقن بجدّيتى الشديدة.. وكن عادة يسمين المتفوّقة "حقنة".. أما أنا فيطلقن علىّ"سرنجة".. للسخرية من طولى وتفوّقى فى الدراسة..

والغريب أننا- أنت وأنا- أصبحنا بعد فترة أصدقاء.. جمعنا الاهتمام بالقراءة والشعر.

وخلال صداقتنا اكتشفت أنك فعلا طليعى كما يقول "سمير".. فقد رأيت لوحاتك وأعمالك عندما كنت أزور أخي، زميلك فى الكلية، وحضرت ندوات شعر كثيرة عندكم، كنت تشارك فى تنظيمها، وكذلك عروض الأفلام الراقية و مسرحيات "المونودراما". ومن خلال ندواتكم تعرّفت إلى كثير من الشعراء والفنانين الكبار.

وعرفت أنك تعيش قصة حبّ طويلة مع "جنّات" بنت الجيران.

وبعد فترة عرفت أنك على علاقة بـ"ماشالله" الموديل.. وأن هذه العلاقة العجيبة لا تحول بينك وبين حبّك لـ"جنّات"!

وشاءت الظروف أن أتعرّف إلى"جنّات" فى حفلات وندوات الكلية.

وأعجبتنى شخصيتها، وصرنا من أعزّ الأصدقاء، حتى أننى فاتحتها ذات مرة عن معضلة حبّك لها ومعاشرتك لـ "ماشالله".. فى البداية حاولت هى إنكارعلاقتك بالموديل التى تكبرك فى السن كثيرا.. لكن عندما تأكّدت أننى أعرف. تناقشنا كثيرا فى الأمر.

ولا أنكر أن التركيبة المعقدة لشخصيتك، استهوتنى على أكثر من مستوى، كشاعرة، وكدارسة لعلم النفس فى مرحلة تالية، وكأنثى.

كشاعرة، كانت صدمة كبيرة لي، أن يكون هناك اجتماع للحبّ والخيانة فى شخص واحد!.. وكمحللة نفسيّة، أعطيت الموضوع اهتماما كبيرا، وأنت تعرف أن رسالة الدكتوراه التى تقدمت بها وحصلت على تقدير ممتاز عنها.. كانت – فى الحقيقة– عنك.. وبوحى من حالتك.. التى تتبعتها ورصدت من خلالها علاقاتك المختلفة.

تصوّر يا"سلطان" أنك عقدّتنى لدرجة جعلتنى أحصل على الدكتوراه بتفوّق، عن عقدتك؟!

ياترى ماهو مركزى فى سجلات حريمك أيها السلطان؟

وهل ماتزال تضعنى فى هذه السجلات أم شطبتنى بسبب حماقتى، وتهوّرى؟

وشيء آخر.. تعرف أنني كنت متصوّرة أن مقاطعتي المفاجئة لك، ستجعلك تتهافت عليّ.. وتطاردني؟!.. وأحزنني كثيرا أنك لم تفعل.

أعرف أن حكايتك بدأت مع "جنّات" أول الحريم. و"ماشالله" الثانية.. وابنتها "لحظة".. كيف تأتّى لك الجمع بين امرأة وابنتها؟!

ثم هناك حكاية "هدى".. وربما يكون ترتيبي أنا "سماء".. الخامسة.. وبعدي جاءت "راجية".. وبعدها من؟.. آه.. "نادرة".

كنت تحب الاستماع إلى أشعاري.. وتقول إنها غير عادية، مجنونة.. وكان هذا الإعجاب يثير فيّ رغبة غريبة، وأسأل نفسي، هل يمكنني أن أقتحم عالم "سلطان" - بشعري - الذي يحبّه؟..

هل أستطيع - بشعري - أن أوقعه في حبّي؟..

هل يمكنني - بشعري - أن أفك عقدته، وأعيده إلى سويّته، ثم أفوز به لنفسي؟.. وأتخلّص من بقية حريمه؟..

الشعر بالنسبة لي لم يكن هياما وعواطف مراهقات، إلا لفترة محدودة، تجاوزتها عندما وقعت في غرام آخر هو القراءة.

قرأت عن الشعر الذي يغيّر الحياة، والشعر الذي يرفض.. والشعر الذي يطلق طاقات الإنسان الخفيّة المحبوسة، ويحرّر وجوده ووجدانه، ويأخذه إلى عالم الحقيقة الغائبة المغيّبة، المدفونة بداخلنا.

فأصبحت أكتب شعرا حقيقيا..

مضطرب.. يقولون عنه. وماذا فينا غير مضطرب؟..أليس من الطبيعي أن نكون مضطربين، ونحن نعيش عالما مضطربا؟!

عندما أصبح لك مرسمك الخاص في "خان الخليلي" عرفت طريقي إليك هناك، وكان مدخلي هو إعجابك بشعري.. كنت تقول لي إن شعري، هو نوع من المداد الموضوعي لاتجاهاتك التجديدية التي تتطلّع للتعبير عنها في أعمالك التشكيلية.

كتبت قصيدة جديدة، وجريت لأطلعك عليها، وأقرأها لك في مرسمك.

كنت متلهّفة إلى سماع رأيك.. ومناقشاتك التى تثير فيّ روح التحدى والمغامرة.

يومها قلت لى إنك ستخوض تجربة جديدة هى استلهام أجواء قصيدتى فى لوحة.

جلسنا سويّا نقرأ أبيات القصيدة بصوت مسموع.. فاكر؟!

بعدها اقترحت أنت أن ترسمنى فى أوضاع تتناسب مع أفكار وصور القصيدة.

قلت إنك تفضّل أن ترسم وجهى بدون النظارة.. وسألتني:

= عندك مانع أرسمك سابحة فى السما، يا"سماء"؟

– ما أنا طول عمرى سابحة فى السما.. باسمى.. وطولى.. وشعرى.

= لكن السباحة هنا من غير"مايوه"!

فى تلك الليلة، كنت لي، وكنت لك.

عندما خلعت نظارتي، و.. ملابسي، لم أكن قادرة على رؤيتك، ولا رؤية كل ماحولي.. كنت سابحة فى عالم هيولي.. وكنت أنت تسبح فى عالمى.. قلت لى إنك تستكشف معالم فتنتى الخفية، وأننى أخفى جمالى وراء حدّتى وتشدّدى وثرثرتى، ونظارتى. وعندما أخلع كل هذه السواتر، تتلألأ لآلئى.. وتتفجّر ينابيعى.. وتندلق فتنتى على سطح اللوحة.

فهل نجحت أنا فى أن آخذك لعالمي، أم أنك أنت الذى غلبتك الرغبة والتجربة؟

حتى الآن وبعد كل هذه السنين، لا أعرف؟!

ولا أعرف إن كنت لاحظت وقتها استجابتى وتجاوبى الفورى معك.. ترى ماذا قلت لنفسك عنى يومها؟..

أسئلة كثيرة كنت أحبّ ان أجد لها إجابات، لكن علاقتنا لم تدم طويلا، توتّرت بسرعة. فبعد ماجرى فى مرسمك. بدأت أتعامل معك، ليس كصديق،

ولاحبيب، ولكن كزوج. عليه التزامات.. وبدأت أتدخّل فى أمور تخصّك.. وفرضت نفسى كمديرة علاقات عامة ودعاية لك..

واستخدمت صداقتك القديمة المتينة بأخي"سمير" فى محاولاتى الحمقاء المحمومة لمحاصرتك، وعزلك عن محيطك.. وحريمك.

كنت أريد أن أحقّق خطتى خطوة، خطوة..

ولعبت بعض الظروف دورها فى مساعدتي، لفترة.. ثم لم يحدث شىء.

واصلت حبّك لـ"جنّات".. وعشقك للأخريات.. كل ما جدّ هو أننى دخلت فى حريمك.

آه.. سأضطر إلى قطع حديثى إليك.. جاءت"جنّات"!

١٠

«سلطـــان»

تظلمينني يا"سماء" إذ تتهمينني بإيقاع العذارى فى حبائلي..

وأنت أول من يعرف، على الأقل من تجربتك وقصّتك معى، إننى لم أوقعك.. أنت التى أتيت إلى مرسمى.. وآثرت خيالى بقصيدتك.. وتطوّرت الأمور بيننا.

أما كلامك عن أن عقدتى جعلتك تضعين رسالة دكتوراه، فلا أعرف هل يحسب لى أم علىّ.. يادكتورة؟!

ومع أننى لم أطلّع على الرسالة، وكنت أحبّ ان أعرف ماتوصّلت إليه، و قبل ذلك، كيف عالجت الموضوع، لكن لأنك بعد تقديم الرسالة بفترة قصيرة، قطعت علاقتك بى من طرف واحد، لم أستطع سؤالك.

وصدّقينى أننى حتى الآن لا أعرف سرّ انسحابك من علاقتنا التى كانت تقوم على الصداقة الفكرية والفنية ومشاركة الأفكار. قبل أن تكون صداقة مع شقيقة صديق العمر.. أو مع شاعرة مجنونة بالعشق.

هل أسأت إليك؟..

هل صدر منى ما يؤذيك أو يضايقك؟..

تقولين إنك حاولت بأشعارك أن تفوزى بي. وربّما تصوّرت خلال إعدادك لرسالتك الأكاديمية، أنك ستتمكنين من تحليل شخصيتى نفسيا، وعلاجى، وحل عقدتى، وإعادتى إلى سويّتي- كما تقولين- ثم بعد ذلك يكون من السهل عليك أن تنفردى بى وتتخلّصى من"جنّات"(مع أنك تقولين إنها من أعزّ صديقاتك، وأن شخصيتها أعجبتك) ومن كل من تسميهن "حريمى".

تصوّرت أنك بالشعر أو بالتحليل النفسي، أو بالمحاصرة، ستحلّين مشكلتى، وهى فى الحقيقة مشكلتك أنت.. فلمّا لم تنجح محاولاتك.. اختفيت.

كنت أرى جمالك الخفّى عندما تخلعين حدتك وتشدّدك ونظارتك.

وصوّرتك فى لوحاتى المتأثرة بقصيدتك، فأستكشفت خفايا مكنونة،

وكانت الصورة أجمل من الأصل - فى رأيك - الذى أخالفك فيه..

فالجمال صورة، لكنه ليس صورة فقط، وليس بضاعة، وليس بالمقاييس، الجمال فكرة.. إحساس، شعور، روح، معنى، صورة ذهنية، خيال، موسيقى.. شعر.

وأنت تعادين جمالك بتفكيرك أننى أوقع الجميلات فى فخاخي.

أو أنك ستنفردين بى وتتخلّصين من "جنّات" والأخريات.

هذا تفكير ضد الجمال.. يادكتورة"سماء".

وكان يشعرنى بأنك تنجرفين فى الاتجاه الخطأ.. فهل لهذه الأسباب اختفيت؟..

لا أعرف، هل أقول لك إننى أعتزّ بك وأعتزّ بطاقتك الشعرية.. وثقافتك، ولو كنت قرأت رسالتك الجامعية عنى، ربما أضفت اعتزازى بأكاديميتك.

.. أمّا عن جمالك..

فأنت تتمتعين بجمال دفين، وبعد أن تخرّجت وعينت معيدة بالجامعة، امتلأت قليلا، فبدت مظاهر جمال جسدك تتجلىّ.

واعذرينى إذ أقول إن لك جسد يتكلّم لغة خاصة به.. شيفرة مثيرة لدرجة الإرهاق.

واسمحى لى أن أقول إن أسلوبك فى العشق، كان مختلفا، كنت كمن تخاف انقطاع التواصل، فتفرض السيطرة.

ومع ذلك فلم أبادر إلى قطع الصلة بك.. كنت أعانى من محاولاتك محاصرتى وفرض نفسك علىّ ومساعدتى رغم أنفي.. لكننى لم أزجرك.

لم أرفضك. ولم أمتنع عن مواصلة علاقتنا الحميمة..

يا دكتورة"سماء".. أعرف أن لديك مشاعر حبّ تجاهي، وأعرف أنك تعرفين تركيبة شخصيتى المعقدة- كما تقولين عني- وأرجو أن تكون زيارتك لى الآن إعلانا منك بانتهاء مقاطعتك لي.

فأنت عزيزة عندى.. وأنا- بصراحة- أفتقدك.

١١

«جنّــات» و«سمــاء»

فوجئت بحضور الدكتورة"سماء" إلى غرفتك.

أعرف أنها انسحبت من حياتك منذ فترة..

وأنها حاولت أن تستولى عليك، وتحرّرك منّى ومن الأخريات.

ولم أتصوّر- بسبب ما أعرفه عن حدّتها وعصبيّتها- أنها ستظهر مرة أخرى.

فهى بانسحابها ومقاطعتها لك، ولي، أعلنت- ضمنًا- هزيمتها، وفشلها، وخروجها من سباق المسافات الطويلة.

مع أنها الوحيدة فينا نحن الـ"سبع جنّات"- كما تسمّينا- التى تبحّرت فى بحث حالتك، واتصلت - كما قالت لى أثناء إعدادها الدكتوراه - بكل "حريم السلطان"- كما تطلق علينا جميعا، وهى معنا.

وفى رسالتها، التى أطلعتنى على نسخة منها، قبل أن تناقشها، ودعتنى لحضور جلسة المناقشة، تقول أن الحالة التى يمثّلها"سلطان"- طبعا لم تذكرك بالاسم أو بأى صورة- تعكس مظهرا من مظاهر الخلل فى الأنساق القيمية والنفسية، داخل الأسرة المصرية..

تسميّها هى بلغتها الأكاديمية"حالة الهوّس الجنسى والاضطراب النفسي، المتمثّلة فى الجمع بين علاقة الحب وعلاقات أخرى".

وبحكم دراستى لعلم النفس والمفاهيم التربوية الحديثة.. ناقشتها، فى نتائج بحثها، قلت:

- اسمحى لى يا "سماء".. الأغلبية العظمى من الرجال ماعندهمش هوس جنسى، ومع ذلك أنت بتعممى أحكامك؟

ردّت بعصبية:

= يا"جنّات" أنت ماعملتيش بحث ميداني، ولا درستى حالات كثيرة زيّي.. بتقولى كلام نظري.

أحيانا كنت أشك فى أن "سماء" اندفعت لوضع هذه الرسالة، ليس لباعث علمي، ولكن لغرض شخصي.. ظنّت أنها ببحث حالتك والاطلاع على المراجع واستشارة الأساتذة وبحث العيّنات والحالات.. و.. و.. ستتمكّن من حل المعضلة وفكّ اللغز.. والوصول إلى العلاج السحري، الذى يحقق لها الفوز بك!

كانت تردّد على مسامعى بفخر، يستفزني، أنها تعدّ دكتوراه عن "سلطان"!

وعقدت معى عدّة مرّات جلسات بحثية - كما تسمّيها- سألتنى خلالها أسئلة شديدة الخصوصية فى أمور سرّية، بينى وبينك.. وفشلت فى استدراجى لإفشاء أسرار وخفايا علاقتنا التى لايعرف عنها أى إنسان أى شيء.. لكننى كنت أجاريها فى الأمر.. كانت بى رغبة عارمة فى معرفة ما لا أعرفه، عنك يا"سلطان" وعن الأخريات.. بما فى ذلك "سماء" نفسها.

وقبل وقت قصير من مقاطعتها لنا، وكانت قد أصبحت تحمل لقب الدكتورة "سماء نور" المدرس المساعد بآداب عين شمس، جلسنا معا..

وفهمت أن "ماشالله" تعكس- فى تفسير الدكتورة "سماء"- "عقدة أوديب" حسب مفهوم "فرويد" عن رغبة الرجل المكبوتة فى عقله الباطن، فى معاشرة أمه.

و"هدى" هى الحاجة إلى الأمان المادي.

و"لحظة".. الرغبة فى الشباب الدائم.

و"سماء".. نزال عقلى وتحريك للخيال.

و"راجية".. الإعجاب بالأنثى فى معركة الحياة.

و"نادرة".. الرغبة فى أنثى مثالية بلا متاعب.

.. وأنا "جنّات".. التواصل مع تاريخه الشخصي، وذكريات الجسد.. والعواطف البكر.. البراءة والإثم.. الجنّة والنار.

كنت أستمع فى صمت.. ولما انتهت من تفسيراتها العجيبة، وجّهت لها ملحوظة أعتقد أنها كانت قاسية عليها:

– كل ده تحليل لـ "سلطان" بس.. لكن كل علاقة هى بين طرفين.. قطبين، فين القطب التاني؟!

ضحكت "سماء" ضحكتها الهستيرية التى احتفظت بها رغم السنين وقالت:

= صحيح.. لازم نبصّ للمسألة من زاوية كلّ واحدة من الـ "سبع جنّات"..

وفكّرت قليلا.. رفعت رأسها إلى السماء.. وخلعت نظارتها، ومسحتها بمنديل من الورق.. ثم أعادتها لمكانها، وبدت على عينيها علامات قلق وإرهاق.. وواصلت:

= شوفى ياستي..

واحدة محتاجة لراجل.. دي"ماشالله". وواحدة محتاجة لراجل برضه ودى "هدى".. الفرق أن واحدة فقيرة وعاجزة ماديا، ومحدودة اجتماعيا. والثانية غنية ومثقفة وقادرة، لكن كل واحدة منهما محبطة نفسيا. ومهزومة إنسانيا.

أما "لحظة" فهى الضياع والعدوانية والعبث.. وأيضا العنفوان، والشبق. و"سماء" اللى هى أنا.. تعكس– ولامؤاخذة – .....

(أغمضت عينيها خلف النظارة ثم همست): شوق المرأة للرجل، من فوق.. ومن تحت، يعنى لذّة الفكر مع لذّة الجنس.

و"راجية" هى رغبة المرأة فى التساوى بالرجل.

و"نادرة".. إحساس المرأة بأن أنوثتها تكفي.. وأن الأنوثة هى كلّ شىء.. وأن ما تحتاجه هو فقط التمتّع برجولة الرجل، مقابل إمتاعه بأنوثتها.

– وأنا؟!

سألتها كما لو كنت أخاف أن يفوتنى قطار العمر.

سكتت قليلا.. وتنهّدت، وتحاملت على نفسها– كما بدا لي– وقالت:

= أنت.. بطلة سباحة المسافات الطويلة.. أنت كلّ النساء، أنت "حواء".. أنت حالة غير طبيعية.. أنت المرأة فى الجنة.. يا"جنّات".

لم أفهم هل ماقالته عنى مدح أم ذمّ؟!

لكن شعورا قويا بأننى أكسب نقاطا فى سباق المسافات الطويلة، ملأنى غبطة.. وفكّرت أننى سأستعيدك يا"سلطان" ليس لأننى مثلها، أفكرّ فى تحريرك منهن والفوز بك ومعالجتك مما تسمّيه هى "مرضك" أو"عقدتك".. لأن نظريّتى فى الفوز بك لاتقوم على أنك مريض أو مصاب بعقدة، فأنا أعتقد أننى أعرفك أكثر من أية إنسانة غيرى..

وطبعا أشعر بالغيرة من علاقاتك هذه، وأتعذّب، وأتمنى أن تنتهى.. تختفى.. تتلاشى. وكانت أمنيتى الكبرى، ألاّ تكون موجودة من الأساس.

لكننى أنا لا أريد الاستحواذ عليك.. لا أريد أن أحاصرك، وأضايقك، وأفرض نفسى عليك.. لا..لا..لا. أنا أحبّك فعلا..

ولا أحبّ لك إلاّ كلّ ما يُسعدك.

ولم أفرض نفسى عليك، ولا أنت فرضت نفسك علىّ.. أنت رجل حرّ وأنا امرأة حرّة، فى علاقة حرّة، غير مقيّدين، إلا بمشاعرنا الحقيقة.

ومع أننى لا أعرف تفسيرا محددا لحالتك يا"سلطان" ولم أتفرّغ لدرستها ونيل الدكتوراه عنها بدرجة امتياز، فلدىّ بعض التفسيرات أو التخمينات، وأعتبر نفسى وعلاقتى بك، من أسباب حالتك هذه، إلا أننى لا أعتبرك

خائنا.. وقد اختلفت مع "سماء" فى هذه النقطة أيضا.. فهى تراك خائنا.. وتعتبرنى "عبيطة"!

وماذا عن الأخريات؟..

تقول "سماء":

= زيّ ما اتفقنا، أية علاقة لا بد أن يكون لها طرفين.. وقصدى أن"سلطان" لا بيحكم ولا بيتحكّم فى كل العلاقات دي..هو طرف فيها.. قطب من قطبين.

وكل واحدة من الـ"سبع جنّات" فى العلاقة معه، هى القطب الثانى.

ولمّا درست الحالات، وراجعتها على أصول ونظريات علم النفس، والقيم اللى بتحكم المجتمع، وظروف نشأة الجنسين، وفكرة كل جنس عن الآخر.. والأنساق النفسية والتربوية والقيم اللى نشأوا عليها فى المراهقة..

كل ده وصّلنى إلى أنها ليست مشكلة "سلطان" لوحده، أو أى رجل مصاب بذات الهوّس.. المشكلة عندنا إحنا كمان يا"جنّات". أنا وأنت وكل البنات والستّات.. تربيتنا لم تكن سليمة ولا قويمة، ولا عصرية.

الهوّس الجنسى ليس مرضا رجاليا..هو مرض اجتماعى تربوى نفسى يعكس الخلل فى المفاهيم.. اضطراب القيم.. النفاق الاجتماعى، الخوف من المصارحة والوضوح.. الخوف من الآخر.. الخوف من الحقيقة.. الخوف من المواجهة، اللّف والدوران..التمويه.. الكذب.. الغش .. النفاق. التلوّن والتزييف، والتحايل والتلاعب.

وكمان المنع.. الحرمان.. التقييد.. الكبت. التعجيز.. التعقيد. تأزيم الحياة.. خنق الحياة. قتل الحياة.

بانفعال عبّر عنه صوتها وحركة عينيها من خلف النظارة، وكذلك حركة عصبية من اليدين والجسم كله، واصلت:

= عمرك حدّ فى أهلك يا"جنّات" شرح لك يعنى إيه الحبّ؟!

عمرك عرفتى بطريقة سليمة ومحترمة، وتربوية حاجة عن الرجل..

أو عن المرأة.. وليه فيه رجل وليه فيه مرأة؟!..

وبيعملوا إيه؟!

وليه بيعملوا اللى بيعملوه ده؟

وازاى يعملوه صح؟

عمرك عرفتى مثلا، أنت ليه لك "بزاز"؟!

وإيه هى وظائف أعضائك.. ووظائف أعضاء"سلطان" أو أى راجل؟!

إحنا ما اتربيناش صح يا"جنّات".. ومن هنا بتيجى كل المشاكل والعقد والأمراض النفسية والعصبية والاجتماعية.. ده غير الأمراض البدنية والعقلية.

طبعا كلام كثير مما تقوله "سماء" منطقي، لكن معظمه كلام "الشاعرة مضطربة المشاعر" وهذا الوصف لم أطلقه أنا عليها لكن ردّده أحد الشعراء الكبار فى ندوة من ندوات كلية الفنون، زمان.

والآن.. هل جاءت "سماء" لتعيد محاولاتها الفاشلة؟.. خاصة بعد طلاقها من زوجها.. أم أنها تغيّرت، ونضجت، وأصبحت أقل اضطرابا فى مشاعرها؟..

لا أدرى.. سأحاول أن أستكشف الأمر.. المهم الآن، هو أن يقول لنا الأطباء أخبارا جديدة وسارة عن تطورات غيبوبة حبيبى..

"سلطاااااااااااااااااااان".

١٢

«سمير»

الغيبوبة هى الحل!

كم أنت ماكر وداهية ياعزيزى" سلطان"..

عندما ضاقت كل السبل، ولم تفلح كل الوسائل، وفشلت المحاولات.. وانهارت الآمال.. وجدت أنت الحل.

أنت فقط تعرف الحل..

تركتنا جميعا نتطاحن ونتقارع ونثور ونثرثر.. ونتفلسف وننظّر.. واخترت الحل.. ربما هو الحل الوحيد.. الحل الذى لم نفكّر فيه.

ولكن هل غيبوبتك استسلام لليأس؟

أم أنها استراحة المحارب؟!

اسمع يا"سلطان".. خذنا معك فى الغيبوبة، ربمّا تمكننا من بناء تنظيمنا السرّى، ووضع خطط عملنا وتوزيع المسئوليات وتدريب الكوادر لتحرير مصر من البلاء الذى أصابها.

طبعا لن يستطيع أحد اكتشافنا أو القبض علينا أو حتى التلصّص على مانفعله.. فنحن فى الغيبوبة.

عفوا ياعزيزى.. اعذرنى، أخوك يخرّف..

ماذا يمكننى أن أفعل سوى التخريف.. والخرف، مادمت لا أنا ولا غيرى قادرون على فعل أى شىء ؟!

أكتب؟!..

كتبت من سنين وسنين.. ولا شىء يحدث، لا شىء يتحرّك.. الأحوال تسوء، وكلما تصوّرنا أنها بلغت قاع القاع، وأنه لا يمكن أن يكون هناك

أسوأ مما هو الآن، نفاجأ بالأسوأ.. والأكثر سوءا.. وماهو أسوأ مما هو أكثر سوءا!

هوّة سحيقة، بئر بلا قرار!

نحن ننحدر بقوة انحطاط ذريّة.

وكنت دائما أشعر بمعاناتك بسبب هذا الانحدار، تسمّيه أنت الانحطاط..

وينتهى بنا النقاش عند نقطة واحدة هى العجز..عجز النخبة المثقفة عن الفعل.

وعجزها عن التواصل مع الناس.. وعجزها عن التخلّى عن منافعها ومطامعها، وتطلّعاتها غير المشروعة.

عجزها أساسا عن فهم نفسها، كنخبة وفهم مهمتها، ومسئوليتها..

وبالطبع عجزها عن أى فعل.. أية حركة.. يقول المعلم"انجلز":

إن "أوقية"حركة تساوى طن نظريات!

اعذرنى ياصديق العمر، فأنا غير قادر حتى على الوقوع فى الغيبوبة.. عاجز!..

المهم كيف الحال عندك؟!

هل تعرف طريقة توصّلنى عندك؟..

هل حتى هذه المسألة، محتاجة لوساطة أو رشوة؟!

ماذا أفعل يا"سلطان".. تعبت من المهاتيّة، ولا من سمع ولا من قرأ.

طبعا أنا أحسدك على الراحة التامة التى تنعم فيها الآن..

لكن من ناحية ثانية، أفتقدك يا أخي.. فأنت أكثر من أخ.. وأكثر من صديق.. أنت رفيق الطريق.

اعذرنى، فأنا لم أعرف البكاء طوال حياتي، لكننى أبكى الآن.

أتذكّر بكاء "أبى عبدالله" آخر ملوك "الأندلس" لحظة ضياع كل شىء..

لا تقلق.. سأهدأ بعد قليل، و أواصل الإرسال.

تعرفنى يا"سلطان" وأعرفك، من أيام المدرسة الثانوية، ذاكرنا سويّا.. وأختارونا فى معسكرات التفوّق فى الإسكندرية سويّا، وعملنا مجلات حائط مدرسية، ودخلنا الكلية نفسها وعملنا- أيضا- مجلات حائط..

فاكر يا"سلطان" لمّا العميد اضطر يطلع سطح الكلية عندنا فى "إعدادى فنون" ليقرأ المجلة التى عملناها أنا وانت وانتقدناه على لسان الحمار" حو حو"؟!

ومع ذلك تقبّل الرجل النقد - وكان دكتورا وأستاذا كبيرا فى العمارة، كما تعلم- برحابة صدر، واعتبرها "خريّات"- كما قال- وعاتبنا بأبوّة، وشكرنا لجدّية اهتمامنا بإصلاح أحوال الكلية، مع أننا كنا لسه داخلينها امبارح بس!

أين مثل هذا الرجل الآن؟..

الرجل قعد معنا وناقشنا فى ما كتبته أنا ورسمته أنت، ووصل لنتيجة، وفكّر فى إجراءآت وإصلاحات، ونفّذها.. كان يمكنه أن يبلّغ عنا مباحث أمن الدولة، أو المخابرات العامة، أوالحربية، ويتخلّص منا، ويلفّق لنا تهمة..

وأيامها كانت الدولة قوية ولها هيبة، مع أن البلد كان على مشارف نكسة.

فاكر لمّا كان زملاؤنا فى الدفعات الأقدم يسمّوننا "دفعة النكسة"..

لأننا دخلنا الكلية من هنا.. وحصلت الهزيمة المرّة من هنا؟.

فاكر لمّا قبضوا علينا واعتقلونا لأشهر، لأننا كنا نفكّر فى عمل شىء ما.

فاكر لمّا الأستاذ "عبد السلام الشريف" أخذنا من يدينا وسلّمنا للمجلة.. وكنا مانزال فى "إعدادى فنون".

فاكر لما حوّلنا الكلية لمركز ثقافى، وكلّ يوم ندوة أو مناظرة أو مسرحية أو فيلم أو معرض أو.. أو.. أو.

.. ولما عملنا مشروع لعرض لوحات وأعمال الطلبة والمعيدين فى ١٠ مواقع في"السويس" تحية لشعبها بعد الحصار، وجعلنا الفن التشكيلى يتواصل مع الناس. فاكر لمّا رحنا للمهاجرين من مدن القناة فى قرى "الجيزة"..

قلت لك يومها:

– المرّة دى ماتشيلش دفتر اسكتشات، مش عايزين المهاجرين يفتكرونا بنتفرّج عليهم. دى كانت أول مرة تخلّى عينك زى الكاميرا، وتحفظ المناظر، وبعدين ترسمها..

وكانت أول مرة تكتشف فيها قدرتك على رسم موضوعات صحفية حية غير لوحات الغلاف الملونة الأنيقة.

فاكر لمّا رفضنا الانضمام لمنظمة الشباب.. لكن سمحوا لنا بالاشتراك فى تحرير مجلتها!

فاكر مسرح الـ ١٠٠ كرسي؟

وقهوة "إيزائيفيتش"، و"عمّ جمعة".. وقهوة "ريش" و"عمّ ملك" و"عمّ فلفل".. وندوة "نجيب محفوظ" كل يوم جمعة.

فاكر أيام مكتبة الاستماع الموسيقى فى متحف الفن الحديث؟

ولما أستاذنا "ناجى كامل" صمّم عرايس"الليلة الكبيرة".

فاكر كم كنّا نحبّ صحبة أساتذتنا.. جمال السجينى.. وحامد ندا.. و كمال أمين.. والحسينى فوزى.

كل ما أفتكر الحاجات دى.. أحزن على مصر.

فاكر صحبتنا للأبنودى ومجدى نجيب وعبد الرحيم منصور وسيد حجاب وسميرعبد الباقى.. ويحيى الطاهرعبدالله وأمل دنقل ونجيب سرور.

فاكر خليل كلفت ومحمد عبد العظيم.. وسيد شحم.

فاكر فاروق عبد القادر.. وعمر الفاروق وعبد السلام رضوان.

فاكر أول مرة نقابل الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم، فى غرفة فوق سطح عمارة، فى حى الزمالك.. مسالك مسالك. وأصبحنا من دراويشهم.

أنا إيه اللى بيخللينى أفكّرك بالعالم دي؟..

ربّما أريد أن أوصّل لك رسالة أن:

"مفيش جهد بيروح بلاش"..

وأن: العجز، مرحلة.. وإن طالت.

يا"سلطان".. سامعنى، ولاّ عامل نفسك فى الغيبوبة؟!

يابختك ياعم.. مش حاسس بالبلاوى اللى إحنا غرقانين فيها.

هربت من حياتنا العشوائية.. والسحابة السودا.. وصفر المونديال.

عموما.. كلّها أمور تحدث عندما يروح البلد كلّه فى الغيبوبة، ويتم تغييب المواطن.. واحتواء النخبة، وهدم القيم والمبادئ..

ويكون الحاكم مستندا على الولاء لقوى الخارج.

فلو كان الحاكم منتخبا فعلا.. لعمل للشعب الذى انتخبه ألف حساب.

و"إحنا طبعا لا انتخبناه ولا عايزينه أصلا".

لا أريد أن أوجع قلبك وأثقل عليك بكلام السياسة، الأحسن أن نتكلّم عن المرأة.. لأنها موضوع مهم.. وطبعا بعد الغيبوبة، ظهر كل "حريم السلطان"..

اللى اختفت من حياتك من سنين، واللى سايقه التقل اليومين دول، واللى .. واللي. وما أنساش أن "سماء" أختى كانت ضمن حريمك. لكنها فاقت لنفسها، وخرجت أو أخرجت نفسها من الحرملك.

توهّمت أنها ستتمكّن من إقناعك بكونها الوحيدة التى تناسبك..

وبصراحة.. أعترف لك أننى كنت أحذّرها منك.. وأكشف لها عن طبيعتك الخاصة، حتى لا تصدم فيك.. لكن كانت لها نظرة أخرى.

لم تلتفت إليك أيام كنت تذاكر معى فى البيت فى "عابدين".. فاكر يا"سلطان"؟..

قالت لى إنك واد سهتان..

لكن فات وقت، ولقيتها تتكلم عنك كفنان طليعي..

وقلت لى أنت إنها معجبة بك رغم علمها بعلاقة الحبّ بينك وبين "جنّات"..

ولمّا "سماء" أعدّت رسالة الدكتوراه، لاحظت أنها تتناول حكايتك، وميولك، وكشفت لى هى وقتها أنها تعرف حكاية "الحريم".. وقالت إن الدكتوراه تدور حول حالتك.

وتعجّبت أن تقدم هى على دراسة هذا الأمر..

لم أناقشها، أو أعارضها، لكن قلت لنفسى أن "سماء" حصل لها شىء.. ماهو؟.. لاتسألنى؟!

طبعا أنا أخوها الأكبر منها وأعرفها وأعرف جنونها..

ولمّا اشتغلت أنت على قصائدها ورسمتها.. أحسسّت أنا أن شيئا ما يحدث بينك وبينها، لكن لا أنت كشفته لى، ولا هى..

ولما انشغلت هى بموضوع الدكتوراه، شعرت أنا أنها تهرب من شىء ما.

وبعد ما أصبحت الدكتورة "سماء" وجدت أنها ابتعدت عنك!

ولم أعد أسمع منها سيرتك، ولم تعد أنت تشير إليها فى أحاديثنا معا.

وأنا فى هذه الأمور- كما تعلم عني- لا أحبّ التدخّل.

لكن المفاجأة، أننى لمّا أخبرتها بماحدث لك.. وأننا ذهبنا بك فورا للمستشفى، فوجئت بتأثّرها الشديد.. وتصميمها على أن تأتى لزيارتك.

يخيّل لى أنها مازالت تحبّك..

ولم تسمع كلامى وتحذيراتى لها من البداية.

مع أنها كما تعلم، تزوّجت من زميلنا السابق المهندس"يوسف السحراوى".. " يوسف" زميلنا فى قسم العمارة، وكان معنا فى العملية التى اعتقلنا بسببها، ثم اتضح أنه هو الذى أبلغ عنّا.

يقول إنه لا خائن ولا جاسوس ولا حاجة.. يقول إنه إنسان طبيعى، وأنه كان مشتركا معنا بحماس، لكن الخوف ملأ روحه، فراح، وكشف العملية كلها..

وكانت مكافأته أنه لم يعتقل.. ثم أصبح من قيادات"منظمة الشباب"، وطبعا تعرف أنه من فترة عين مديرا لإسكان "الجيزة".

لكن بعدها بقليل وقع الطلاق بينهما..

فهل الدكتورة "سماء" تريد معاودة ما انقطع بينكما؟

أسأل نفسى.. وأظن أنك تسأل نفسك، السؤال نفسه.

١٣

«سلطـــان»

طول عمرى أقول إن اسمك على مسمّى:"سمير نور".

من سنة ١٩٦٤ وأنا وأنت أخوة.. لانفترق، فى المدرسة، فى الكلية ، فى المجلة، وحتى فى المعتقل!

كنت مطمئنا أنك ستكون أول من يسارع لنجدتى عندما حدث ما حدث..

ومع أننى لا أعرف ماذا جرى لى حتى أكون هنا.. أحاول أن أتذكّر اللحظات السابقة مباشرة على وقوعى فى هذه الغيبوبة..

كنت أجلس معك ومعنا زميل آخر.. من هو؟.. لا أتذكّره الآن.

غارقا كعادتى فى وضع فكرة كاريكاتير جديد..

وأنت تناقش أفكارى كعادتك أيضا.. أقول لك إننى ضقت ذرعا بالدمار والفساد والعشوائية التى تفرض نفسها كأسلوب حياة على كل شىء فى البلد.

وتتكاثف أفكارى وتندمج فيها مشاعرى، فأبدأ باللهاث.. تتقطع أنفاسى.. يضطرب إحساسى بالتوازن.. وترتبك قدرة عيونى على الرؤية.

وأحس كما لو أننى آلة كهربائية.. مروحة، غسالة، ثلاجة انقطعت عنها الكهرباء فجأة.. أحدهم سحب "الكوبس" من"الفيشه".

إظلام تام.

ولولا أننى جالس على مكتبي، لسقطت على الأرض منهارا.

ولاحظت أنت ماجرى، ولم يكن عاديا.. فأنا أتهاوى وأسقط من على مقعدى.

لا أرى.. لا أسمع.. لا أتكلم، تماما مثل قرود الحكمة المشهورة.

والأخطر هو أننى لا أدرك شيئا!

يتصبّب العرق ويتفصّد من كل جزء فى جسمي. عرق غزير..

وأتهاوى وأكاد أسقط أرضا، وتنتبه أنت فتبادر إلى الإمساك بى وتطلب الإسعاف.

أنت الوحيد الذى حضر معى للمستشفى.. فى سيارة الإسعاف.

سألك الأطباء عما جرى، وهل تعلم ماذا تناولت أنا من غذاء قبل الغيبوبة؟.. وهل تعلم شيئا عن تاريخى المرضي؟..

وقلت كل ماتعرفه.. وأبلغت أهلى وجاء أخى "أمير" على الفور.

وأخطرك الأطباء بعد فترة بأن حالتى غامضة الأسباب.. غير عادية.

يعجبنى فيك، ضمن ملامح كثيرة تميّز شخصيتك، أنك قادر على الضحك والسخرية، فى أحلك اللحظات.. كنت تفعل ذلك فى عزّ زنقة امتحانات الثانوية العامة، وفى الفترة التى تشرّفنا فيها بدخول المعتقل سويّا.

وفى مواقف أخرى كثيرة..

والآن، تضحك وتسخر.. وتسوق الجنان، وأيضا تبكي.

لا تبك يا"سمير".. اضحك كما شاء لك الضحك، لكن أرجوك، لا تبك.

لا شيء يستحق البكاء عليه، وحال مصر ستنصلح يوما ما.. بنا أو بغيرنا.

ولودامت لغيرهم ما وصلت لهم، هذه حال الدنيا..

المشكلة الحقيقية أنه تم إفساد نسبة كبيرة من الناس، وطبعا سبق ذلك إفساد النخبة.. ولا تنس مخطط القضاء على الطبقة الوسطى، والطبقة العاملة.

لكن مصر ولاّدة.. وعمرى ما فقدت الأمل فى قدرة الناس على التغيير والثورة.

عموما.. دعنا من هذا الكلام الكبير وخلّنا نركّز على أشياء ناعمة..

أولا.. أين زوجتك" تماضر" يا" سمير"؟.. هل حضرت ولم ألاحظ وجودها.. أنا فى الغيبوبة لا أقدر على ملاحظة كل شىء، ساعات وساعات، مرة أحس إن مافيش حاجة فايتاني، ومرة أحس- قصدى ما أحسش- بأية حاجة حواليّ.

نفسى أشوفها.. تعرف كم أحبّها.. ولولا أنك فزت بها ونحن فى الكلية، كان هناك كثيرون غيرك عينهم عليها، لكن هى اختارتك.. وأنت اخترتها، وتخلّيت من أجلها عن كل حريمك.

ولم أقدر أنا على هذا مع "جنّات".. لا أدرى السبب؟..

تزوّجت أنت وخلّفت شبابا وبنات.. حاجة تشرح القلب.

وبقيت أنا فى الهوا.. أحب عيشة الحرّية.

فكّرتنى بـ"عبد الوهاب" وأغنيته التى أصبحت مثلى وفلسفتى الخاصة، دائما ما كنت أدندن معه، كلماتها التى أبدعها أحمد رامي، أو لوحدي، إن لم أجد الشريط:

أحبّ عيشة الحرّية
زى الطيور بين الأغصان
مادام حبايبى حواليّ
كلّ البلاد عندى أوطان
مطرح مايجى فى عينى النوم
أنام وأنا مرتاح البال
وأغيّر الحال يوم عن يوم
مادام أشوف قلبى ميّال
بحبّ عيشة الحرّية
الحسن فى الدنيا ألوان

تحـــــــيى الـفـــــــؤاد وتـــردّ الـــــــروح
خـــفـــّـــة ودلال وجـــمـــــال فـــــتــّــــان

تــرضـــى هـــواك مـــطـــرح مـــــــــاتـــروح
القـــمـــــــــر ســـــاعـــــة ظـهـــــوره

يـحــلــى نـــوره يـــاحـــــــــبــــــــايـــب
والـــفـــــــــؤاد يـــزيـــد ســــــــــــروره

كـل مــــــــايشـــــــوف الـلـى غـــــايـب
شـــــوف إلـنســـــيـم فـى الـروض ســـــارى

يـنـبـــــــــــه الـورد الـنـعــــــــســـــــان
آدى خــــيـــــــــالى وأفـكـــــــــــارى

زى الـطـيـــــــور بـين الأغـــــــصــــــان
بـحـبّ عــــــيـــــــشـــــة الحــــــرّيـــــة

بالمناسبة، ظهور"سماء" هنا أسعدنى جدا، طبعا حكايتنا سوا "ملعبكة".. لكن هى كانت متشدّدة أكثر من اللازم.

ولا بد أنها لم تكن سعيدة فى حياتها الزوجية مع "يوسف".. لا أعرف كيف التقيا؟

"سماء" تعطى نفسها وحيأتها ومستقبلها لـ" يوسف السحلاوي"زميلنا الذى أبلغ عنا وقضينا شهورا فى المعتقل بسبب وشايته. الخائن، المخبر. أنا ما آكلش من كلامه ده عن الخوف.. دى تلاقيها الحجة اللى اخترعتها له الجهة اللى بيشتغل لحسابها.

لو كان خاف فعلا – كماقال– وهذا شىء طبيعى فى الإنسان– كان جاء وقال لنا، لو أنه خائف علينا.. أو لكان انسحب فى صمت. لكن يبلغ عنا ويدّعى الخوف؟!.. لماذا لم يكن معنا فى المعتقل؟!..

لماذ؛ كان دائما وهو معنا، قبل الاعتقال، يريد أن يعرف كل شىء؟

أد ـن لها أنها طلّقته لأنه غير مسموح له بالحضور هنا..

١٤

«راجيـــة»

أنا السبب فى ما جرى لك يا"سلطان".

بالتأكيد أنا السبب.

لكن لم أكن أقصد.. فأنا بريئة..

ولّما ترجع لنا بالسلامة إن شاء الله، ستعرف أن غيبوبتك كانت بسببي، لكن بدون تعمّد منّى.

كنت قاسية معك بعض الشيء، عنيدة جدا. لم أتصرّف بنعومة المرأة، فأنا أحتقر الأنثى المستضعفة، أو العالة..

وإذا كان أحد التفسيرات التى تروقنى عن الحياة هى أنها صراع، فما المانع أن ندخل فى صراع الحياة.

ولعلنى منذ اللحظة الأولى التى قابلتك فيها فى مجلة "الوعد" وأنا فى حوار ونقاش وجدل لا ينتهى معك.

أحيانا كنت أشعر بك كتهديد لى ولعملى فى المجلة.. وفى أحيان أخرى، أجدك تساعد وتساند زملاءك وزميلاتك.. وأنا منهم.

وبحكم طبيعتي، كنت أتحدّاك.. ومع أنك رسّام وأنا محرّرة، فقد كنت أخوض معك مناقشات حول العمل والأفكار والأيديولجيات..

كنت طبعا معجبة بريشتك، وأسلوبك الخاص وتنوّع وتعدّد قدراتك، فأنت رسام كاريكاتير من الدرجة الأولى وفنان بورتريه بألوان الزيت متميّز، ورسام صحفى متفوّق.

وأضحك الآن إذ أتذكّر أن بداية تعارفنا كانت خناقة!

كنت محرّرة جديدة، واقترحت موضوعا يشترك معى فيه أحد رسامى المجلة، واختارك رئيس التحرير، ولم يكن قد سبق لنا سوى تبادل عبارات"صباح الخير".. و"مساء الخير".

كانت فكرتى هى تصوير حالة الفوضى والعشوائية فى البلد، من خلال نقطة واحدة هي"ميدان العتبة".. وذهبت إليك فى مكتبك الذى هو ستديو خاص بك، بينما كنت أجلس أنا مع زميلاتى وزملائى الخمسة فى غرفة واحدة.. تساوى نصف مساحة مكتبك أو أقل.

وجدتك تعاملنى باستهانة، قلت لى دون حتى أن تنظر لي:

= طب يا آنسة "راجية".. روحى أنت خلّصى الموضوع، وهاتيه وأنا حا أعمل له الرسومات اللازمة بعدين.

– المفروض يا أستاذ"سلطان" أننا ننزل"العتبة" سوا ونعمل الشغل مع بعض، علشان يكون روح واحدة.

= دى أفكار مثالية يا"راجية".. مين عنده وقت للكلام ده، روحى أنت بس واعملى الموضوع، وأنا بعدين أرسمه.

– يا أستاذ.. ده موضوع مختلف.. ريبورتاج حي، عايز حركة فى الشارع.. مع الناس، فيه نبض وحرارة وحياة.. ولازم نكتبه ونرسمه فى "العتبة".. مش فى المكتب.

= يا بنتى أنت لسه جايه امبارح وعايزه تعلمينا شغلنا؟!

خرجت من مكتبك غاضبة وأحسّست أنك إنسان متكبّر، وكسول، وضد الشباب الجديد فى المجلة.

وكرهتك، مع أننى كنت أحبّ لوحاتك وكاريكاتيراتك.. وكنت معجبة بك بشدة لأنك الفنان الوحيد القادر على الجمع بين فن اللوحة الزيتية التى نشاهدها فى المعارض، وفن الكاريكاتير، وفن الرسم الصحفى.

لكن كل هذا انهار.. ولم يبق منه شيء، عندما خرجت من مكتبك ومرسمك، وكنت أول مرة أدخله، وأول مرة أدخل معك فى حديث يتجاوز "صباح الخير" و"مساء الخير".. حديث عمل.

بكيت، ولم أدر ماذا أفعل؟..

هل أستجيب لرغبتك، وأذهب وحدى أكتب التحقيق من "العتبة"، وأسلّمه لك، أم أذهب لرئيس التحرير وأبلغه أنك غير متعاون.. وتتعالى عليّ، ولا تريد أن تخرج معى لنتجوّل فى ميدان "العتبة".. أنا أكتب وأنت ترسم؟!

أو أطلب رسّاما آخر يخرج معي.

جلست وحيدة على مكتبى الصغير.. ومن حولى ٤ مكاتب صغيرة خالية، ذهب أصحابها لبيوتهم أو ربما لأعمال وريبورتاجات خارجية.

فكّرت أن مهنة الصحافة قاسية، وعمرى فيها سنتان فقط.. ولو كنت اتجهت للعمل فى السلك الدبلوماسى لما تعرّضت لمثل هذه الإهانة..

وقرّرت أن أتحدّاك.. لكننى مع ذلك بكيت..

وجاء "عم حسين" الساعى يسأل إن كنت أحتاج لأى شيء، أو أى مشروب من البوفيه.. ولمح دموعي، فاقترب منى مندهشا، مستفسرا:

– إيه اللى جرى؟.. خير إن شاء الله. مالك يابنتي؟.. مالك يا أستاذة "راجية"؟..

وقبل أن أردّ عليه، كنت أنت تقف خلفه، وتطلب منه واحد شاى لى وواحد قهوة مضبوط لك.

وكشفت لى يومها أن ما حدث منك كان اختبارا لي.. قلت لى إنك أردت أن تعرف مدى جدّيتى وإصرارى وحماسى للعمل الصحفي.

وطبعا نزلنا سويا بعد ذلك، ومن يومها أصبحنا أصحاب، ننزل معا كثيرا، وكان ريبورتاج"كوميديا أى كلام" برسومك المميزة وكتابتى بنكهتها الجديدة، حدثا فى حياتى الصحفية، والشخصية..

ومع أنى سمعت عن حريمك، لكن شيئا ما بداخلى جذبنى إليك.. أولا أعجبنى أسلوبك فى الكشف عن مدى جدّية الصحفى الجديد.. وحماسه، رغم أنى تلقيت الصدمة وقتها.. ولدقائق شعرت بكراهية شديدة لك ولمجلة "الوعد".. وللصحافة كلها.

ثانيا، وجدتك خلال عملنا معا فى الزيبورتاج، أكثر حماسا مني، وأيضا كنت تعطينى القيادة، وتسألنى عما يناسب الموضوع من رسوم.. وساعدتنى فى وضع عنوانه الساخر.

ورسمت اسكتشات، ودعوتنى للغداء فى مرسمك فى "خان الخليلى" وأطلعتنى على بعض أعمالك التى لم تكتمل.. وعدنا لنواصل شغلنا فى "العتبة" بعد ذلك.. وطلبت أنا أن أحضر معك عملية تحويل الاسكتشات إلى لوحات، فعدنا إلى المرسم.. وكنت أظن أننا سنعود إلى المجلة..

ذلك المساء، وبعد قليل من الكلام وقليل من التقارب، سألتني:

– مبسوطة يا"راجية"؟..

= قوى يا أستاذ"سلطان".

– مابلاش التحفّظات دى.. إحنا زملاء.. وبنشتغل مع بعض وبنفكّر مع بعض، وبعدين أنا مش أكبر منك بكتير، مش كده؟

= مش عارفه؟

– بصىّ فى عينىّ كده وقولى لى عمرى كام.. وأنت عمرك كام.

لما بصّيت فى عينيك، وأنت بصّيت فى عينيّ،

مسكت فيك.. واتعلقت بيك.. حسّيت إن كل كيانى بيتعرّى قدّامك. وكانت قبلة دافئة هى التى جمعتنا.

قلت لك إننى مسحورة بيك..

قلت لك إن أمنيتى أن ترسمنى فى لوحة زيت.

قلت لك إن الريبورتاج ده تاريخى، لأنه جمعنى بيك..

لم أصدق أن ماحدث حدث!..

قلت لى إنك تريد أن تعرفنى أكثر.

قلت لى إننى إضافة مهمة للمجلة..

قلت لى إن جمالى برّى.

وأن أنوثتى فيها لمسة صبيانية لذيذة.

وأنك قصدت استفزازى، لتكتشف جوهرى.

ووعدتنى أن ترسم لى بورتريه زيتاً.. لكنك لم تقل متى.

وبعد القبلة كان هناك عناق وتلامس ثم قبلات أخرى، وكنت بتلقائية شديدة تعيد ترتيب شعرى، وتحرّك يداى وجسمى كله فى تكوين يصلح للوحة.. وتبعد قليلا وتنظر إلىّ من بعيد، ثم تأتى لتغيّر "البوز"..

وفى كل مرة كنت تجعلنى أتخفّف من بعض ما أرتدى.. وكنت أشعر وقتها بأننى داخلة إلى عالم المجد.. ولا مانع عندى من أن أتعرّى قليلا.

لكننى وجدتك أنت أيضا تتعرّى!

أصابنى هلع. ارتديت ما كنت خلعته من ملابسى وجريت هربا منك.

حتى أننى من لهفتى، تركت بعض أشيائى ومنها مفكرتى التى كنت أسجّل فيها ملاحظاتى ومادة الريبورتاج.

لماذ أحكى لك هذا كله وأنت تعرفه كما أعرفه أنا؟..

ربما أنا أذكّر نفسى.. أعيد النظر للوقائع بعيون جديدة..

أعرف أننى اندمجت معك بعد ذلك بفترة طويلة، لكن برغبتى وإرادتي، لم أقع تحت تأثيرك، ولم أشعر أننى متورّطة.. أو مستدرجة.. أو مغتصبة.

بالعكس عندما جئتك لأمارس معك الحبّ، كنت أشعر بنوع من السيادة، والتفوّق، والقوّة.

كنت قد جعلتك تتضرّع لى، وتعبّر عن شوقك وهيامك، ورغبتك القوية فى الاندماج فىّ.

وتعمّدت أنا أن أتدلّل.. أتلكأ.. أظهر لك قوة الأنثى.

مع أننى كنت عندما أعود لبيت أسرتي، أتعّذب، أتمزّق.. أحاول النوم فلا يأتينى نوم.. أظل سهرانة لا أفكّر إلاّ فيك، وفى نفسي.

لم أكن أحبّك.. والحقيقة هى أننى لم أكن أعرف ما هو الحبّ!.. وحتى الآن ربما ليست لدى إجابة واضحة عن سؤال الحبّ، لم أعشه من قبل ولا من بعد وحتى الآن..

الإعجاب موجود، إعجاب بفنك وشخصيتك وحتى بجسمك، وثقافتك وتميّزك.. لكن حبّ؟.. لا أظن.

ربما يكون هناك عامل آخر جذبنى إليك، عامل خفي، هو أن لك أكثر من امرأة.. أعرف عن بعضهن، وليس كلهن. والتحدّى هو الذى جعلنى أميل إلى مغامرة ممارسة الحبّ معك.

أكره الأنوثة الضعيفة المستضعفة.. مع أننى حتى الآن أبكى فى بعض المواقف القاسية.

أكره أن أكون موضوعا للاغتصاب.. أو الانتهاك. وأفضّل العكس، فلا مانع عندى من أن أكون أنا الفاعلة، المُنتهكة والمُغتصبة للرجل.

ربما نزعة انتقامية تولّدت لدى من زمان. لكنها تتملّكنى وتحكم حركتى.

المهم.. كنت أحبّ أن أعرف تفاصيل عن حالتك من الدكاترة، لكن لم أفهم من كلامهم شيئا.

يا ترى فيه أمل فى عودتك إلينا؟..

فيه فرصة تانية لنا.. نتفاهم أو حتى نشاغب فى بعضنا؟..

أنت حاجة كبيرة قوى يا"سلطان".. لي، ولمصر كلها..لازم ترجع لنا.

وإذا كنت أنا السبب فى ماجرى لك، ولو أنه من غير قصد، فأنا مستعدة أعمل أى شىء وكل شىء، حتى تعود لنا.

١٥

«سلطـــان»

"راجية راجي"..

لم أقابل فى حياتي، على كثرة من عرفت وقابلت من نساء، من هى مثل هذه الكاتبة الصحفية المتميّزة بالشجاعة والثقافة والمبادرة والجسارة..

أعرفها جيدا، وأعرف أنها أنثى كاملة الأنوثة.

لو كنت قارئا لكتاباتها ومواقفها، وجرأتها، وقدرتها العالية على اقتحام القضايا الشائكة، والمناطق المسكوت عنها، والمحظورة، ولم تتنبه لاسمها وصورتها، لفكّرت أنها رجل يكتب بشجاعة.

هى أصغر منى بأكثر قليلا من عشر سنوات، لكن تفكيرها ودراستها وثقافتها، وحبّها للمعرفة والاطلاع، وخبرتها المباشرة بالحياة والناس، تجعلنى لا أشعر بفارق السن هذا..

حاولت فى بداية تعارفنا أن أختبر معدنها.. ووجدتها من النوع المتين الذى لا يلين.

لو فكّرت فى الزواج فهى الأفضل.

لكنّها مثلى، لا تريد أن تتزوّج!

ومشكلتها معى هى أنها لا تعترف بالحبّ.. وتقول إنها لا تعرف تماما، ما هو!

وتعيش الحياة بمنطق التحدّي، وهذا يجعلها فى حال يقظة ومتابعة وحيوية.. وقوّة.

ونظرتها للرجل تقوم على الندية والمنافسة، والتحدّي.

وعندما اقتربنا من بعضنا البعض وجدتها متقدمة جدا فى فهمها للعلاقة بين الرجل والمرأة.. تراها رغبة مشتركة ومتساوية، وترفضها لو كانت علاقة يتفوّق فيها الرجل.. أو تكون فيها المرأة مجرد فريسة.

وذات مرة كشفت لى عن أنها لا تمانع أن تكون للمرأة سيادة بدرجة ما على الرجل!

وتفسيرها لهذا هو أنه يحقق نوعا من التوازن والتعويض عن ديكتاتورية الرجل التى مارسها على المرأة عبر العصور!

تناقشنا كثيرا واختلفنا كثيرا واتفقنا قليلا.. لكن بقت "راجية" المرأة المفضلة عندى.

ولا أعرف لماذا تصر على تصوّر أنها سبب ماجرى لي..

هل هى رغبة مكبوتة لديها فى أن تكون الفاعل المحرّك للأحداث، حتى لو كانت مصائب، مثل الغيبوبة التى أنا فيها الآن؟!

أم هو الإحساس الزائد بالذات؟

وربما يكون ميلا غامضا للوم الذات؟..

لا أدرى، فهذه مسائل تحتاج إلى طبيب نفسى، لا رسّام.

ويعجبنى فى "راجية" أيضا أنها لم تطلب منى أبدا الزواج.. ولم تفاتحنى فيه.. مع أننا عشنا فترات كما لوكنا زوجين بالفعل. كانت تعيش معى ٢٤ ساعة.. فى المجلة، وفى نقابة الصحفيين، وفى المعارض والمتاحف والأحياء الشعبية وحتى فى الواحات والبحيرات.. كانت معي.

مرّات بحجة رحلات العمل المشتركة والريبورتاجات التى تكتبها هى وأرسمها أنا. ومرّات للنزهة والتسلية والثقافة والمتعة.. والصحبة.

وكانت إنسانة مريحة وناضجة وقديرة.. لو تناسينا جدلها وإصرارها على موضوع قوّة المرأة، وتحدّيها للرجل.

وكأنثى، هى باهرة، وزاخرة وساحرة.. تستمتع باللقاء، وتعطى، وتؤديه كعبادة.. بتبتّل. وتقديس. وتسام. وإقبال. وحرارة.

لكنها كانت تعتبر ارتباطها بىّ نوعا من التحدّى والمنافسة لمن تعرف أن لهنّ علاقة بى..

تعرف عن "جنّات" و.."ماشالله".. و"لحظة".. و"هدى"..

ولا أعرف إن كانت تعرف عن "سماء".. أم لا.

ومع ذلك خاضت تجربتها معي.. لم تقل لى إنها تتحدّى أحدا. ولم تذكر أية واحدة منهن.. وكانت تتعمّد تجاهل وجودهن، وحتى لو ذكرت أنا إحداهن لسبب أو آخر، كانت تعامل الأمر كما لو كان لوحة.. أو شغلا من أشغالى الخاصة التى لا تتدخّل هى فيها.

وكان هذا يثير عجبى قبل إعجابى بـ"راجية".

ولما جاءت معى يوم موضوع "العتبة" حاولت أن أستكشف حدودها، فوجدتها محددة تماما، لم تسمح لى بأكثر من القبلات واللمسات.. وعندما وضعتها موضع الموديل لأرسمها- كما طلبت- عرّيتها، فاستجابت.. ولم تعترض أو حتى تتمنّع.. ولما بدأت أنا أتعرّى، قفزت وجرت..هربت.

وفهمت أنها لا تنساق وراء رغباتها. وأنها عاقلة، ومسيطرة على نفسها. واحترمت ذلك جدا.

والحقيقة أن سلوكها هذا جعلنى أتلهّف عليها، وأتشوّق إليها، ومع أننى رسمتها، بعد ذلك، عارية تماما. إلا أنها لم تمكّننى من أكثر من القبلات واللمسات.

قالت لى إنها لا تحبّنى، وتعرف أننى لا أحبّها، وهى لا تحبّ أن تمارس العلاقة الحميمة مع شخص لا يحبّها ولا تحبّه..

ومع أنها قالت لى مرات كثيرة أنها لاتعرف ما هو الحبّ، ولم تعش خبرة أو تجربة حبّ. فقد أكدّت لى أنها يوم ترغب فىّ سوف تأتى، وتغتصبنى!

وزادنى كلامها ومفاهيمها العجيبة هذه تعطشا إليها.. ووجدت نفسى أتلهّف على لقائها وأتوسّل إليها أن تمنحنى نفسها، وأعرض عليها نفسى بسعادة.. وهيام وتضرّع.

وكان هذا يزيدها تدللاً وتمنّعا.

إلى أن فاجأتنى يوما بزيارة غير متفق عليها، وكان ما كان.

١٦

«سمـــــاء»

قطعت "جنّات" حديثى فى زيارتى الأولى، بدخولها غرفتك هنا..

وهذه المرة أنا متأكدة من أنها لن تكون هنا قبل ساعتين.. وهذه فرصتى لأكمل حديثى معك.. هل أنت معى يا"سلطان" الآن؟

عمـومـا.. مـا كنت أريد أن أقـوله هـو أننى طُلّقت من صـديقك وصـديق أخى.. المهندس "يوسف السحلاوى".. الخائن.

أنت تعـرف أننى تزوّجت منه قـبل خـمس سنوات. ولا تسـألنى لماذا؟.. ستقول إنه خائن، لك ولـ"سمير".. ورفاقكما، وأنه سبب اعتقالكم وتعطيل دراستكم.

أتفق معكما فى هذا تماما الآن.

قبل ذلك لم أكن أوافقكما.. صدّقته وشعرت بأنه إنسان طبيعى، يخاف، ولا يكابر..

أقنعنى بأن تصرّفه كان سليما وتلقائيا..

قال لى إنكم كنتم جميعا- وهو معكم- فى حال هياج سياسى عاطفي، بعد سنة على الهزيمة، وشاركتم فى المظاهرات، وخيّل لكم أن ما ستقدمون عليه، سيترتّب عليه وقوع ثورة شعبية ضد "جمال عبد الناصر"..

وجاراكم هو فترة- كما روى لى- لكنّه فى اللحظة الأخيرة، انتبه إلى أن وهما كبيرا كان يغلّف عملكم، بغلالة ضبابية أفقدتكم القدرة على الرؤية الصحيحة.

قال لى إن وطنيته وحبه للثورة، ردّته عن فكرة مشاركتكم مشروعكم مع أنه لا يشك فى وطنيتكم.

لكنّه خاف على نفسه وعليكم، وفكّر أنه لو انسحب دون أن يبلغكم بشىء، فربما اعتبرتموه خائنا أو جبانا.. ولو جاراكم، فربما كشف عضو آخر منكم كل شىء لأجهزة الأمن.. فيضيع مستقبله!

صدّقته.. وأقنعت أهلى به.. وحتى أخي"سمير" الذى روى لى قصة اعتقالكم، كان يستمع لكل ما قاله، دون مناقشة، وحاول أن يتجاهل وجوده، وترك لى الأمر بعد أن ناقشنى على انفراد، ودحض كل ماقاله "يوسف السحلاوى".

قالت لى أمى وقتها:

- يابنتى إذا كان ده الراجل اللى أنت مطمئنة على مستقبلك معاه، خلاص إنسى كل الكلام ضده.. وصدّقيه هو.

كنت أعرف"يوسف السحلاوى " الطالب بقسم العمارة، من أيام زياراتى لكلية الفنون الجميلة، للقائك ولقاء"سمير".. تعرّفت إلى كثيرين، ومنهم زميلكم "يوسف".. وكانت له اهتمامات مختلفة.

ومع الوقت انقطعت صلتى به، إلى أن التقينا مصادفة، تذكّرنى هو وذكّرنى بنفسه، وتكرّرت مرّات اللقاء.. وطلب أن يتزوّجني.

كنت بعد ما فشلت فى الفوز بك، قد قرّرت أن أقطع علاقتى بك، وأنسى موضوع الحبّ والزواج لفترة.. ربما أيضا بعد الدراسة التى استغرقت سنوات، وخوفى من أن يتكرّر ما حدث بيننا، مع شخص آخر.

.. وجاء "يوسف" فى وقت هدأت فيه، قليلا، عصبيتى واضطرابى وتوتّرى..

قلت لنفسى إن هذه هى فرصتى الوحيدة فى البقية الباقية من العمر.. للزواج، فإما أن أقبلها، أو أن أقول على الزواج السلام.

سمعت كلام أمى.. ولم أسمع كلام أخى"سمير".. وتزوّجت الرجل الذى خانكما.

وكان ذلك أغبى قرار اتخذته فى حياتى كلها، مع أننى كنت قد أصبحت أستاذة علم النفس التربوى بكلية آداب عين شمس.

أستاذة علم النفس التربوي، ناقصة تربية!

فالتربية ليست آدابا وأخلاقا، وحسن سير وسلوك يا"سلطان"..

التربية الصحيحة وعي، إدراك، ضمير.. منهج فكرى إنساني، نشأة سويّة، بيئة سليمة، قيم ومبادئ ثابتة ورفيعة ومحترمة.. مقدسة.

وطلعت أنا الدكتورة "سماء نور" لا سما ولا نور.. ولا حاجه!

شفت خيبتى دى على حدّ قبل كده؟..

وافقت على الزواج من رجل أعرف أنه خائن.

وبرّر لى خيانته، لأنه كان بحاجة إلى امرأة، وفعلت أنا الشىء نفسه..كنت بحاجة إلى رجل، فماذا كانت النتيجة؟.. خيانة طبعا.

لو كنت فكّرت بعقل ولو للحظة، لوصلت لهذه النتيجة المنطقية، فى لحظة.

.. وسقطت "سماء" أرضا..

أعترف لك الآن يا"سلطان" أننى خسرتك، فشلت فى الفوز بك.. فشلت فى الحفاظ عليك.. فشلت فى إقناعك بأفضليتي، وفشلت فى فهم ظروفك وتقديرها، صادرت عليها وأصدرت أحكاما تعسّفية تضمّنتها رسالتى الغبيّة للدكتوراه.

هل من حق صاحب الرسالة الجامعية أن يسحبها ويتراجع عنها، ويعدّ رسالة مناقضة لما وصلت إليه؟

أنا أشعر أننى لا أستحق أن أحمل لقب"الدكتورة"..

فهل يمكننى التنازل عنه؟..

حكايتى مع"يوسف"علّمتنى أكثر مما حصلّته فى كل مراحل تعليمى، حتى الدكتوراه.

خدعنى، ولا أعرف لماذا أنا؟.. ربما لأننى كنت أبعد امرأة، يعرفها، عن عالمه الذى لا أعرفه.. ربما لأن النساء اللاتى يعرفنه، يرفضنه، وهذا سرّ تأخره فى الزواج.

لماذا لم أسأله، وأسأل نفسي، وقتها هذا السؤال؟..

١٧
"راجيـة"

كما قلت لك، حاولت أن أفهم من كلام الأطباء شيئا عن حالتك!

لكنهم لا يريدون التحدّث إلا للأهل أو الزوجة، وأنا لست زوجتك، وأنت ليست لك زوجة، ولهذا قالوا لى إن كلّ التفاصيل عند أخيك "أمير" والعائلة.. وأنه لم يجدّ على حالتك تطوّراً، عمّا أبلغوهم به.

سألت: ماذا قلتم لهم؟..

قالوا- ما معناه-: إن الحالة غير معروفة الأسباب حتى الآن.. والملاحظة الإيجابية الوحيدة هى أن هناك درجة ما من درجات الإدارك والتواصل مع بعض من يزورونك بانتظام.. وإن كانت طفيفة للغاية. وأنهم يأملون من خلال وسائل العلاج التى يوفرونها لك، أن يحدث تطوّر أو ربما طفرة، فى مسألة الإدارك هذه..

سألت: كم ستستغرق؟..

قالوا إنهم لايعرفون كم ستستغرق الغيبوبة، وهل لها نهاية سعيدة أم لا.

سألت: لماذا لا يتم العلاج فى الخارج؟

قالوا إنهم لايرون سببا لذلك.

ويعتقدون أن تطورا ما سيحدث قريبا، نتيجة لعلامات بسيطة يرون أنها تدلّ على وجود بعض أشكال الإدراك وردود الأفعال.. والانفعال.

والأهم عندهم أنه ليست هناك نكسة.

والحقيقة أن هذا الكلام لم يشف غليلى، ولأنى - للأسف - لا أعرف "أمير" فقد أجريت بعض الاتصالات وعرفت كيف أصل إليه واتصلت به، وتقابلنا هنا فى المستشفى.

"أمير" مهزوز.. ومتأثّر بشدة لما جرى لك، ويبدو أن لديه شكّ فى عودتك من الغيبوبة، ومع ذلك فهو لا يتوانى عن فعل أى شىء يطلب منه أو يعتقد هو أنه قد يساعد فى خروجك من الحالة.

فوجئت بأن شقيقك هذا يشبهك كثيرا، مهّذب جدا، وراقى التفكير، وهادئ.. وعرفت منه أنه متزوّج من أجنبية، لا أعرف فرنسية أم أمريكية.

وأنه يعيش فترة طويلة من السنة فى الخارج.. ربما فى بلد زوجته، وأنه كان فى مصر، مصادفة، عندما جرى لك ماجرى.

وبدا لى أنه كان يتساءل عن سرّ اهتمامى الزائد، وقال إن كثيرين وكثيرات من الزملاء والزميلات، وأعداد كبيرة من الفنانين والصحفيين والكتاب والمثقفين سألوا عنك وحضر كثير منهم، لكن المستشفى لم يسمح لهم بدخول غرفتك.

سمح الأطباء للأهل وبعض الزملاء والزميلات، وكل من له بك رابطة قرابة.. أو صداقة، قالوا إن التواصل والتحدّث إليك والتخاطر.. والحديث الشخصى المنفرد، ومخاطبتك باسمك بصوت مسموع، تفيد جدا فى النهوض بالحالة، ويمكن أن تتسبّب فى استرداد الوعى واندمال الجرح الذى يعتقدون أنه قد أصاب شبكة الأعصاب المركزية.

سألنى "أمير"- والحقيقة أننى من لهفتى إلى سماع ما لديه من معلومات عن حالتك، نسيت أن أعرف تفاصيل عنه.. ماذا يعمل؟.. دراسته، اهتماماته.. طبيعة علاقته بك؟- المهم، سألنى بشكل مفاجئ:

- اسمحى لى يا أستاذة"راجية" أسألك، ليه أنت و"سلطان" ما اتجوّزتوش؟!

صابنى سهم الله.. بلّمت، ولم أنطق بكلمة، قمت من مقعدي- وكنّا نجلس فى ركن من بهو المستشفى- ومضيت، وأنا أردّد بغير وعي:

= أنا.. وهو؟!.. أنا أتجوّز؟!.. هو.. هو.. يتجوّز؟!..

رمقنى شقيقك الهادئ، بنظرة بالغة الدلالة، لا تقول سوى كلمة واحدة:

- مجنونة!

فكّرت كثيرا فى هذا السؤال، وأنا أسألك الآن يا"سلطان":

= صحيح، ليه أنا وأنت ما اتجوّزناش؟

اسمعنى، وأرجوك لا تكن مهذبا مثل "أمير"وتقول بنظرة واحدة وبلا كلام: مجنونة.

أعرف أنك ضد فكرة الزواج. وتعرف أننى كنت مثلك تماما، لا أعتقد فى مؤسسة الزواج.

لكن.. ألم يحن الوقت لمراجعة أفكارنا ومواقفنا الجامدة من الحياة؟..

أليس تصلّبنا هذا هو سرّ الغيبوبة التى نعيشها، سواء داخل أو خارج غرفة الإنعاش هذه؟!

ربما تعاودنى حالة التفلسف، التى تأتينى من وقت لآخر، تماما كشعرة المجنون.. ساعة تيجى وساعة تروح!

لكن.. بجدّ، بجدّ يا"سلطان" مش آن الآوان، نبطّل جنان.

أنا ابتديت أعيد النظر فى موقفى من الزواج. ويمكن أقبل أن أتزوجك..

بس أنت تعالى، واخرج من الشرنقة اللى أنت هربان منى فيها دي.

قلت إيه، موافق؟

على خيرة الله، أبعت أنده المأذون؟!

يا"سلطان".. أول ما تخرج من هنا بالسلامة، وأنا متأكدة من أنك خارج خارج إن شاء الله. نفسى تفوق، وترجع عن اللى فى دماغك، وتقبل تتجوّزنى.

عارف ليه با قول لك كده؟.. علشان يبدو إن أنا عرفت يعنى إيه الحبّ!

وعرفت إنى بحبّك، وأنك بتحبنىّ.

عرفته لمّا افتقدت وجودك.. ولما لقيت نفسى بحنّ إليك.. مشتاقة لك، مش لاقية لحياتى معنى من غيرك.. ده هو الحبّ يا"سلطان".

لو لم نجده، لاخترعناه.. كما يقول"نزار قباني".

ولو لم نكابده، لما كنّا عرفناه،.. كما تقول"راجية راجي".

١٨

«جنّـات» ..و«هـدى»

آسفة يا"سلطان"..

حاولت الحصول على إجازة ثانية، حتى أكون هنا بجانبك لمدة أطول، لم تسمح لى الوزارة، قالوا إننى استهلكت كل إجازاتى.

فكّرت فى الحصول على شهادة طبية وهمية آخذ بها إجازة مرضية.. لم يطاوعنى ضميرى.

أصبحت مضطرة للحضور فى ساعات الصباح الباكرة، قبل الذهاب إلى المكتب، ومرّة أخرى بعد الظهر، بعد نهاية عملى فى مديرية تعليم "الجيزة".

سألت عن إمكان طلب إجازة بدون مرتب لمدة ٣ شهور مثلا، قالوا سنبحث الأمر ونردّ عليك، ولم يردّ علىّ أحد.

أفكّر جدّيا فى ترك الوظيفة كليّة، معاش مبكّر، وأبحث عن عمل فيه مرونة.. أشتغل فى ناد رياضى مثلا.. مع فريق السباحة، آه.. فكرة جميلة لم تخطر ببالى إلا الآن.

ما رأيك يا"سلطان"؟..

يهيأ لى أنك موافق..

أريد أن أبقى معك على طول.. الدكاترة يقولون إن الكلام معك يفيد فى علاج حالتك.. ويمكن أن تحصل المعجزة وتخرج من الغيبوبة..

وهذا مايجعلنى أفكّر فى هذه الأفكار..

ترى ماذا تريد أن تعمل لمّا تخرج من الغيبوبة بالسلامة إن شاء الله؟..

ليتنى أعرف، حتى أحضّر لك كل ما تحتاج إليه..

أما أنا فأعرف ماذا أريد عمله عندما تنتهى هذه الأزمة.

أريد أن أقول لك إننى أحبّك، وأريد أيضا أن أعرض عليك عرضا مهما جدا.

أن أحرّرك من الارتباط بىّ.

يعنى أنت غير ملزم بكونى حبيبة العمر.. وأول حبّ وأول كل حاجه.

وأنا..؟ ليس لى، ولن يكون لى غيرك لغاية ما أموت.

لكن.. هذه حال غير طبيعية يا"سلطان".

ولا بد أن نعمل كل ما يمكن عمله حتى لا تتكرّر هذه الغيبوبة..

والله أعلم بسببها بالضبط. لكن الأكيد أن حكاية السبع جنّات من الأسباب.

أعلم أن ضغوطا سياسية وفكرية وفنية أثّرت عليك وأوصلتك لهذه الأزمة.. لكن هذه مسائل ليست بيدي، كل ما أقدر عليه هو أن أرفع عنك أية مسئولية نحوى.

أنا- طبعا- قابلت "الحريم"..هنا، بالمصادفة، حتى"سماء" التى اختفت من سنين، رجعت، وعرفت أنها بدأت تفكّر فيك من جديد، بعد طلاقها.

وقابلت غريمتى القديمة "هدى"..

الحقيقة يا"سلطان" ذوقك حلو.. ست جميلة، ومليانة، ومثقفة، دائما عندى نظرية عجيبة أن العقل والجمال لا يلتقيان.. و"هدى" هانم، كسرت لى النظرية.

أعرف - طبعا- ما تريده هى منك..

لكن ما لا أعرفه هو: أنت، ماذا تريد منها؟..

ما لزومها، لحياتك فى الأيام المقبلة؟

هى قالت لى إنها لا تطلب منك سوى، الصداقة.

ولما حكيت لها عن الدكتوراه، تعجّبت، وطلبت الحصول على نسخة منها لتقرأها!.. كل ما تعرفه أن"سماء" قابلتها أكثر من مرة وقالت لها إنها تعدّ

بحثا، وليس دكتوراه.. وقالت إنها لم تكن تعرف إلا عنّى وعن "ماشالله".. ولم تخبرها"سماء" بأى شىء، وحتى لم تكشف لها عن أنها،هى نفسها – "سماء"– من حريم "سلطان".

وسألتني"هدى" إن كنت أنت تعرف عن هذه الدكتوراه.. وهل قرأتها؟

وفجأة قالت لى:

= اسمحى لى يا"جنّات".. ممكن أقول لك يا"جنّات" كده بدون تكليف؟

– اتفضلى..

= نفسى أفهم، إزاى قبلتى اللى حصل ده كله.. حكاية حريم "سلطان" يعنى ؟

فاجأتنى، وارتبكت، وفكّرت، ترى لماذا تسألنى هذا السؤال ؟..

وأجبتها:

– يا"هدى".. أنا بحبّ"سلطان".. وهو بيحبّني.. ده قدرنا، يعنى حكاية الحبّ دى حصلت من غير ترتيب ولا مناورات ولا مطاردات.. ولا.. ولا.

لا منّى، ولا منّه.

واللى يحبّ إنسان، يحبّ له الخير والسعادة، حتى لو مع حدّ تاني.

لم تصدّق"هدى" أذنيها، ولا عينيها.

تحوّل وجهها البضّ إلى شىء غريب.. كتلة، عبارة عن علامة كبيرة.. لا هى علامة تعجب، ولا استفهام.. علامة ذهول!

ولما لاحظت ردّ فعلى المستغرب لحالها، قالت، بعد أن أخذت نفسا عميقا:

= أنا قريت كثير.. وسمعت كثير.. وسافرت كثير.. وقابلت ناس كثر، لكن عمرى ما سمعت كلام زى كلامك ده.. انت حالة خاصة جدا..

ولمّا لاحظت أننى غير مستوعبة لكلامها، أو أنها لا تعبّر بوضوح عما تريد أن تقوله، واصلت، وهى تشرح:

= الحبّ مش كله عواطف نبيلة وتضحيات بس، فيه كمان مصالح وأنانية وأطماع وشرور.. الحبّ ممكن يخلّى الإنسان يرتكب جرائم.. ويصارع المنافسين.. والمنافسات، لكن أنت غريبة.. بتقولى إن سعادة حبيبك "سلطان" تسعدك، حتى لو مع حريمه!

أنت عارفة يا"جنّات" أنت بتقولى إيه؟!

١٩

«سمـــير»

عندى لك أخبار جميلة، ولو أن أجمل خبر هو يوم خروجك بالسلامة.. المجلة ياسيدى، وافقت على اقتراحى بإصدار عدد خاص تحية لك وأنت فى الغيبوبة.

طبعا أنت مشارك فى العدد برسوماتك البديعة، ومطلوب منى أن أكتب عنك كأقرب وأقدم صديق وزميل لك من سنة ١٩٦٤ .

ياه.. العمر بيفوت بسرعة مذهلة يا"سلطان".

وكلّ الزملاء والزميلات سيشاركون بالكتابة والرسم، وحتى الشعر.

أنا قلت آجى أتسامر معاك شوية قبل ما أروح أكتب..

فكرك لو طلبوا منك أن تكتب عن نفسك.. ماذا تقول ؟..

عموما، سأكتب عن أول تعارف بيننا فى معسكر الفائزين فى مسابقة التفوق الاجتماعى لطلبة المدارس الثانوية فى مصر كلها.. وكان فى الصيف، فى حي"باكوس" بالإسكندرية، وفيه تعرّفنا إلى شخصيات عظيمة.. الدكتور حامد عمار.. والأستاذ عبد التواب يوسف.. وغيرهما ..

كنت أعرفك من قبل أن نتقابل!

كانت هناك جريدة أسبوعية صغيرة، اسمها "الحقيقة" تنشر لى مقابلات ومواد صحفية، وتنشر لك رسومك الكاريكاتيرية.

واتضح أننا زملاء فى المدرسة نفسها وجيران فى"عابدين" دون أن ندرى.

وبعدها تقابلنا وعملنا مجلة حائط مدرسية أسبوعية.. نرسمها ونكتبها معا.. والناظر، لأنه اشترك فى مظاهرات الطلبة والعمال سنة ١٩٤٦ هو اللى سمّاها "إحنا التلامذة"!

واختار شعارها:

"ياعم حمزة إحنا التلامذة

جن وبلاوى مسيّحة.."

وابتكرنا فيها شخصية الحمار"حو.. حو" الكاريكاتيرية.. الحمار الذى جاء معنا للكلية بعد ذلك، وأصبح نجم مجلتنا فى "إعدادى فنون".

فاكر لمّا كنا راجعين من الكلية فى أتوبيس ١٧٤. ووقعت مجموعة عظام بشرية من شنطتك فى قلب الأتوبيس وانقلبت الدنيا.. والركّاب ظنوا أننا سفاحان، ولم يتركانا إلا عندما علموا أنها وسائل تعليمية لمادة التشريح.

ولاّ لمّا رحنا نرسم"مناظر" من المتحف الزراعى فى الدقي، عن حياة الفلاحين وأعمالهم وتقاليدهم، وكانت تماثيلهم بالحجم الطبيعي.. وفوقها ملابس حقيقية، وقعدنا جنب أحد التماثيل، وبقينا ناخد وندى معاه.. ولمّا قمنا سلمّنا عليه وحاولنا نرفع طاقيته من رأسه وطلع إنها لازقة.. وفى طريق خروجنا كررنا المحاولة مع تمثال كان واقف زنهار زى الخفير، فطلعت الطاقية فى أيدينا وصرخ فينا.. أتاريه خفير حقيقى من حراسة المتحف!

ياريت تكون سامعنى يا"سلطان".. وبتضحك معايا.

فاكر لمّا الطلبة القدامى استقبلونا أول يوم ندخل فيه الكلية، واثنين منهم عملوا نفسهم موظفين، وطلبوا منا تسليم كلّ مامعنا من أوراق ونقود.. وأخبرونا بحزم، أن دخول هذه الأشياء إلى الكلية، ممنوع، وقالوا إنها ستسلّم لنا آخر النهار.. ومن يومها ما استلمناش حاجة!

فاكر زميلتنا " فوزية محمد علي" عندما جاءها طالب فى أول يوم.. وادعى أنه معيد، وقرأ اسمها بالكامل، من ورقة بيده، فلما ردّت عليه، قال:

– أنت مطلوبة فى مكتب الدكتور العميد.

فراحت معه، وهى مرتبكة وخائفة، وبعد قليل رجعت لنا تبكي.

فاكر ماذا حصل لـ "فوزية"؟!..

أدخلوها أتيليه "ثانية تصوير" فوجدت "موديل عاري"! ورجعت وهى تبكي، ليس لأنها شافت رجلا عاريا، لكن لأن الطالب الذى جرجرها وراءه، وفاجأها بالمنظر، اعتصرها بين ذراعيه، ومنحها "قبلة الحياة"– كما قال لها ساعتها– واختفى!

وعرفنا بعدها أن هذه المقالب ضمن تقليد عريق فى الكلية، هدفه كسرالحاجز النفسى للطلبة والطالبات الجدد، لتسريع الاندماج فى حياة الفنون الجميلة.. هو"التدشين".

طبعا فى السنين التالية عملنا نحن ما هو أكثر مع الدفعات الجديدة.. فاكر لمّا أخذنا مجموعة طلبة وجرجرناهم للحمّام وفرضنا عليهم خلع ملابسهم وإلا سندلق عليهم صفائح الألوان.. وبدأنا بواحد.. فتبعه الباقون.. وقبل أن يخلعوا كل شيء استحموا ببقايا الألوان التى ملأنا بها بعض الصفائح القديمة.

كانت أيام يا"سلطان"..

ورغم فظاعة بعض المقالب، لكن هل تنكر أن "التدشين" جعلنا فى يوم وليلة نندمج ونتحدّث مع الكبير والصغير بطلاقة وثقة وكأننا نعرف بعضنا من سنين، وحتى مع الأساتذة، كان التواصل تلقائيا.. وبروح لم نكن نعرفها فى المدرسة.

هل تعلم أننى وأنا طالب فنون، زرت أساتذة وفنانين كبارا مثل راغب عيّاد وجمال السجينى، وصلاح عبد الكريم، وشادى عبد السلام، فى بيوتهم

ومراسمهم. وحتى فيلا الدكتور طه حسين.. وفيلا أم كلثوم وبيت بليغ حمدى ووردة الجزائرية.. وعبد اللطيف أبو هيف، وغيرهم؟

هل تصدّق هذا؟!..هل رويت لك هذا من قبل؟..

زرت بعضهم لأنهم جيران الكلية فى الزمالك، وبعضهم لأنى صحفى تحت التمرين.. والبعض بصحبة صديق، وأحيانا كان أساتذتى فى قسم هندسة الديكور، يضعون ديكورات جديدة لبيوت بعضهم، وكنّا كطلبة نذهب للمساعدة فى تنفيذ هذه التصميمات، ونحصل على بعض المال من الأستاذ، مقابل ذلك.

دخلت فيلا أم كلثوم ودخلت فيلا طه حسين لأجرى أحاديث لمجلة الكلية عن حياتهما فى عالم الفن والأدب.

وهل تعرف أننى وأنا طالب ثانوى، قابلت كامل الشناوى، وإحسان عبد القدوس وفتحى غانم وإسماعيل الحبروك، وسامى داوود، وأحمد حمروش، وكامل زهيرى، وفتحى خليل وغيرهم؟..

كنت أجرى معهم أحاديث لجريدة "الحقيقة".. هل كنت تقرأ أحاديثى ؟..

المهم أننى كل ما أتذكّر هذه الأجواء، أشعر بسعادة لأنى اخترت الكلية الصح.

تعرف أن أهلى كانوا يريدون أن أدخل الكلية الحربية أو الشرطة. مع علمهم بكراهيتى الشديدة ونفورى من العسكرية وملابسها.. لتعارضها مع شخصيتى وموهبتى وروحى المتحررة.

كانوا يرون أن المستقبل فى هذه الكليات لأنها تفتح الطريق إلى السلطة.. قال لى أبى ذات يوم وهو يحاول إقناعي، ناصحا:

= يابنى أنت شايف البلد محكومة بالضباط، وحتى لواءات البوليس بيتعينوا محافظين.. فلو ماكنتش ضابط فى مصر الأيام دي، مالكش مستقبل.

كنا تقريبا فى سنة ١٩٦٥ وكانت كليات القمّة بعد الحربية والطيران والشرطة، هى الطب والهندسة، والاقتصاد والعلوم السياسية.. وطبعا نحن نحبّ الكتابة والصحافة والرسم والفن، ولا تهمنا كليات القمّة، لأننا مع القاعدة..هاهاها!

ما الذى ذكّرنى بكل هذا ؟..

آه.. المقال اللى سأكتبه عنك.

أنت يا"سلطان" تتلخص عندى فى عدة ملامح:

= الطليعية.. فأنت كفنان، لا مثيل لك فى الجمع بين فنون التصوير والحفر والكاريكاتير. عدا الطليعية فى الأسلوب طبعا.

= المبادئ.. من أيام المدرسة وإلى أيام الغيبوبة، أنت تحمل مبادئك نفسها.. الوطنية، العدالة والحرية، مقاومة الانحراف، مواجهة المسئولين بقوة وشجاعة.

الدعوة للخير والحق والجمال. مساندة الأغلبية الشعبية من الفلاحين والعمال.. والسخرية من أعداء كلّ هذه المبادئ.

وفى الفن التشكيلى البحت، بعيداً عن الكاريكاتير، تمثّل مدرسة أو اتجاها جديدا أعتقد أنه امتداد لـ "محمود سعيد" و"عبد الهادى الجزار" وإن بطريقتك وبصمتك الخاصة.

وربّما لا تعرف أننى أصف أسلوبك فى الكاريكاتير بأنه "كنافة" وهو أسلوبك فى الرسم الصحفى عموما، فأنت تعتمد طريقة تنفرد بها بين فنانى الكاريكاتير والرسم الجرافيكي، وهم كثر، تضع قلمك "الفلوماستر" بلمسة سحرية على اللوحة ولا ترفعه عنها قبل أن تكون أنجزت البورتريه أو الاسكتش كله!

وهذا أسلوب يتمتع بالديناميكية والنبض الحى، والإيجاز.. ورصد اللحظة.. أسلوب لذيذ كما الكنافة..

وحتى طريقتك فى التوقيع.."كنافة"..

تكتب: "سلطان" كما لو كانت خيوط الكنافة المتوازية المنحنية المتشابكة، وتنهيها بحرف النون على هيئة دائرة كاملة وفى قلبها نقطة.. والغريب أن هذا هو توقيعك من أيام رسوم الكاريكاتير التى كانت تنشر لك وأنت طالب ثانوى، فى جريدة "الحقيقة"!

ليتنى أجد نسخا منها لأنشر بعضها فى العدد الخاص.

وطبعا عندى لوحة أعتزّ بها كثيرا رسمتها لى بألوان الباستيل، قبل أن نتقدّم أنا وأنت لامتحان القدرات الذى أجرته كلية الفنون، وبنجاحنا فيه دخلنا أعزّ مراحل حياتنا، فى نظرى.

هذه اللوحة هى اللى غيّرت رأى"سماء" فيك.. وغارت منى، وطلبت أن ترسم لها لوحة مماثلة.

طبعا حكاية المرأة فى حياة الفنان"سلطان سعيد" تحتاج مجلدا كاملا..

وليس عددا خاصا من المجلة لايزيد على ٦٤ صفحة.

حتى لو اكتفينا بلوحات النساء.. أو"حريم السلطان"- كما تردّد الدكتورة " سماء"- فسنحتاج لـ١٥٠ صفحة للوحات فقط، قبل أية كتابة.

وبالمناسبة، ياعزيزى، واحدة منهن ستكتب مقالا عنك على أربع صفحات.. هى الزميلة الكاتبة المرموقة "راجية راجي".. والله وحده أعلم ماذا ستقول، وكم ستكشف من الخفايا والأسرار. وكم ستخفى!

كنا نحب أن تكون معنا خارج قوقعتك اللذيذة هذه، لتشاركنا بأفكارك التى تقترحها لهذا العدد المدهش.

لا أنسى أفكارك التى قدّمتها ونفّذت بعضها فى أعداد"الوعد" الخاصة عن بيكاسو.. وتوفيق الحكيم، وسيف وأدهم وانلي، وطه حسين، وعبد الوهاب، ويوسف إدريس، وإسماعيل يس، ونجيب محفوظ، وشارلى شابلن، ويحيى حقى، وجيفارا، ويوسف وهبى، وروزاليوسف، وأم كلثوم،

وهيتشكوك. وناظم حكمت.. وشكوكو. وجبران. ومحمود مختار، وفيروز.. ونجيب الريحانى.. ويوسف شاهين.

ومن الأفكار التى أحاول تنفيذها للعدد، مقال يكتبه لنا الدكتور" نور الدين البدرى" الذى يشرف على حالتك ويتابعها كل يوم، وهو خبير مخ وأعصاب مهم، وله أبحاث منشورة فى المجلات الدولية المتخصّصة.. والحقيقة أنه شخصية جميلة، وأنا متأكد أنك ستحبّ التعرّف إليه، عندما تقرّر الخروج من برجك العجيب هذا.

وعموما لو لم ننجح فى الحصول على مقال منه عنك وعنْ حالتك.. فالبديل هو حوار معه.. وواحدة من زميلاتنا بدأت تستعد لهذا، ولعله يبشّرنا بأخبار سارة عنك.

واقترحت محررة شابة أن تجرى مقابلة مع أول من ظهرت وجوههن فى لوحاتك على غلاف المجلة.."ماشالله" الموديل. وهناك مقابلة مع ابنتها الفنانة التلقائية "لحظة".. أول اكتشافاتك.

ومحررة أخرى عندها فكرة مجنونة، ستجرى معك حديثا متخيّلا اخترنا له عنوان «من داخل الشرنقة»!

و"سعيد عطا الله" وعد بإخراج العدد الخاص بأسلوب مناسب لاتجاهاتك الفنية، كما أنه سيكتب دراسة عن أعمالك التشكيلية.. وتحت عنوان "سلطان الكاريكاتير" عندنا مقال لـ"صبرى سالم" المؤرخ الوحيد لهذا الفن، والمفاجأة أنه سيصدر له كتاب عنك اتفق عليه مع دار النشر بالفعل، كما أخبرنا فى اجتماعنا لوضع خطة العدد.

كل هذه أفكار جميلة.. والأجمل هى فكرة جاءت من سكرتيرة رئيس التحرير وعرضها فى الاجتماع، هى نشر مختارات من رسائل قراء المجلة التى تتحدّث عنك وعن فنك وعن افتقاد الجميع لخطوطك وأفكارك.. وسخرياتك اللاذعة.

تذكّرت أيامنا الأولى فى "الوعد"..

كم أحببنا اسم وروح وأسرة هذه المجلة..

كنا نتدرّب كمساعدين للمخرج الفني، بجانب ميلى للكتابة وميلك للرسم والكاريكاتير.. وشجّعنا رئيس التحرير عندما تكشّفت له مواهبنا، فخصص بروازا ثابتا لرسومك الكاريكاتيرية، وأتاح لى أكثر من مرة أن أقترح أفكار الموضوعات الرئيسية لبعض الأعداد، وأكتبها بنفسى أو أعدّها مع فريق من المحرّرين والمحرّرات الجدد، وأقدّمها بأسلوبى الجديد، لم يحدث هذا لأى جيل من قبلنا ولا من بعدنا.

وحتى محاولاتى لمواصلة أسلوب تشجيع الأجيال الجديدة فى المجلة، قابلتها المتاعب، تغيّر الاتجاه، لم يعد المطلوب مواهب جديدة، أصبح الأهم هو الولاء للنظام الجديد.

آه.. تذكّرت الآن واقعة مهمة جدا.. يوم جاءتنا رسالة تليفونية شديدة اللهجة من الرئاسة.. تتضمن استياء الرئيس شخصيّا من اللوحة الكاريكاتيرية التى رسمتها له على الغلاف..

وقوله: هىّ حصلّت السخرية من الرئيس؟!

مع أن المقال الافتتاحى كان بعنوان"تحية للبطل".

وألزمنا مضطرين أن نرسم له صورة زيتيه بأسلوب تقليدى، بالزى العسكرى، وأن تنشر فى العدد التالى.

ومن المدهش أنه رفض استقبال الرسام، وبعث إليه ببعض الصور الكبيرة الملوّنة، وبعث أيضا بجاكيت البدلة العسكرية وعليه النياشين، جاءت به فرقة عسكرية وفرضت على رئيس التحرير التوقيع على إيصال استلام الجاكيت وتعهّد بتسليمه فى موعد محدّد.

يا!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!ه!

كل ده يطلع منك يا"سلطان".. يابتاع الحريم؟!

٢٠

«سلطـــان»

ياااااااااااااااااااااه!

قلّبت الذكريات والمواجع يا"سمير"..

لكن يجب ألاّ أنسى مسألة مهمة.. كيف تصدرون عددا خاصا عنّي؟!

هل أرقى إلى مصاف الشخصيات التى أصدرنا عنها أعداد "الوعد" الخاصة التى أصبحت من ملامح شخصية وتاريخ مجلتنا ؟!

هل أنا مختار القرن ٢١ مثلا؟!

سيف ولاّ أدهم وانلى؟..

بيكاسو؟!..

إنها مبالغة عاطفية كبيرة جدا، لا يصح أن تصدر من فريق المجلة الذى قدّم أعدادا لا تخلو منها مكتبة أى شاب أو شابة، أو أى مثقف فى مصر والبلاد العربية.

أنا معترض.. ولو لم أكن فى الغيبوبة، لصممّت على اعتراضى، ورفضت بشدّة فكرتك يا أخى وصديقى العزيز.

لكن طبعا أنت متأثّر عاطفيا بماجرى لي، ونسيت – أو ربّما تناسيت – منهجك العلمى، وتفكيرك النقدى، وتقديرك للأمور بموضوعية بعيدا عن العواطف والانحيازات والحنين للماضى.. أو حتى الحنين للمستقبل.

هل عندك تفسير منطقى لفكرة هذا العدد؟..

هل يمكن بالتقديرالسليم، أن يكون اسمى بجوار الأسماء التى ردّدت بعضها، والتى خصّصنا لها أعدادا من "الوعد"..

المشكلة أننا ننجرف وراء عواطفنا، ومشاعرنا الشخصية، ونجارى الروح السائدة، روح القطيع، ونتحمّس لمسائل مبالغ فيها، وغير منطقية.. وهذه حال مصر الآن.

وللأسف هذا سرّ تراجعنا، وانحطاطنا، هل مصر الآن، هى مصر زمان، صانعة ومؤسسة الحضارة ؟..

تعرف يا"سمير" كم أحبّك، وأحترمك، وأقدّر تميزك ككاتب مثقف، فنان الإحساس، راقى الفكر، حي، متحرّك، مجدّد، لكن اسمح لى بحكم أخوّتنا أن أرجوك التراجع عن حكاية العدد الخاص هذه.

هل تسمعنى؟.. هل يصلك شعورى؟..

ليس معنى دخولى هذه الغيبوبة، أننى دخلت التاريخ وأصبحت علما، مثل بيكاسو ومختار والأخوين وانلى..

ممكن مقال أو كلمة أو موضوع صغير داخل أى عدد.. وخلاص.

لو صدر هذا العدد فمعناه أن القيم الثابتة تترنّح.. وأن روح الانفعالات والمجاملات والمبالغات، والخروج على القانون والحق والمنطق، هى التى تتحكّم. معناه أننى جعلتكم تخرّبون كل ما ندافع عنه، لمجرد أن عواطفكم حكمت واستبدّت.

هذه هزيمة كبرى يا"سمير" أرجو ألا تستسلم لها.

أنا لا أنكر حسن نيتك، ولا أنكر قدراتى ومحاولاتى وتميّزى وكل شىء، لكن.. لا..لا..لا.

لا أعرف كيف أوصّل لك رأيى..

سأفكّر فى طريقة..

ولا أريد أن أنسى أشياء أخرى..

نظريتك عن الكنافة..

هى تفسير صحيح لأسلوبى فى الرسم والكاريكاتير، وفعلا هو مستمد من أسلوب الكنفاني. هذه أول مرة أتمكّن فيها من تقصّى أساس أسلوبى هذا، والفضل يرجع لك ولأسلوبك النقدى اللمّاح..

الآن أتذكّر كيف كنت، وأنا صبى صغير فى حواري"السيّدة" و" سيدنا الحسين"و"عابدين" أقف مذهولا أمام هذا الساحر وهو يصنع الكنافة. وكيف كان متمكّنا فى عمله الفني، بحركة يد واحدة متواصلة ونشطة، وخبيرة، ومنطلقة، ومحبة للفن الذى تقوم به، وسعيدة.. كان يشكّل الكنافة، كطفل يلعب على هواه.

هذه هى حالى عندما أرسم.. أكون مثل الكنفانى، فهو من تعلّمت منه الفن قبل سنوات طويلة من دخولى كلية الفنون الجميلة.

ولو كان بيدى لجعلت صنّاع الفنون الحرفية والشعبية المهرة يذهبون إلى المدارس، لتقديم فنونهم واستعراضها وتدريب التلاميذ عليها، ليس ليصبحوا كلهم كنافانية طبعا، ولكن ليتدرّبوا على أن الحياة فن..

وأن الفن حياة.. ربما أجمل من الحياة.

وذكّرتنى بأيام الأستاذ"صادق عبد الحق جمعة" ناظر مدرستنا الثانوية الذى شجّعنا على إصدار مجلة "إحنا التلامذه" كل أسبوع.. كان أول من يأتى ليقرأها مع التلاميذ، ولم يكن يتدخّل فيما نكتب أو نرسم..

كان يشجعنا أيضا على تقديم النقد والملاحظات حول سير العمل فى المدرسة.. كان رجلا شجاعا، أين الرجال الشجعان الآن.. ولماذا لا يتولّون قيادة العمل فى كل مكان؟..

لولا الرجال الشجعان الذين صادفناهم نحن فى صبانا وشبابنا، لما نشأنا على مبادئ الحرية والمسئولية و التضحية والشجاعة، والإخلاص لمصر.. وليس لسيادة الرئيس؟!

سيادة الرئيس أغضبته لوحة كاريكاتيرية رسمتها له على الغلاف.. مع أن الدار التى تصدر منها "الوعد"هى التى احتضنته فى شبابه، ونشرت له كتاباته عن الحرية والشجاعة والوطنية.. وحب مصر؟!

أوجعت قلبى ياصديقي..

٢١

«أمـــير»

ربنا يستر..

الدكاترة يقولون إنهم يتوقعون تطوّرا مهما لحالتك يا"سلطان"..

ربنا يستر، لأنى من يوم غيبوبتك وأنا أحسّ أنى أنا الذى راح فى الغيبوبة.

"سلطان" لاتتضايق منى، لكن أنت أخى الكبير تعرفنى تماما، لا أتحمّل مثل هذه الحالة.. وحتى أحوال مصر كلها عندما بدأت تتدهور، لم أقدر على البقاء هنا يوما واحدا، وهاجرت.. أنا الذى لا يحب الغربة.. هاجرت.

-"سلطان".. سلامتك، ألف سلامة، أنا "أمير".. بكلّمك، وعايزك تسمعنى وتكلّمنى، وترجع لنا على طول..

من رأيى أنه كان لا بد من أول ما حصل اللى حصل، ناخدك على برّه على طول.. أصل الحكاية واضحة، إزاى بلد كلها عايشة فى "كوما".. تعالج مواطن صابته الحالة نفسها؟!

كانت عالجت نفسها أولا!

أنا سألت ودخلت على النت، وعرفت إن حالتك دى مختلفة عن كلّ اللى بنقرا ونسمع عنه، دى حالة ملهاش أسباب عضوية، يعنى مفيش مرض أو ألم فى جسمك ترتب عليه دخولك الغيبوبة الفظيعة دي.. السبب إذن هى حال البلد، وأنا عارف إن حالتك النفسية، وصحتك عموما، مرتبطة بصحة مصر.. وأنك متواصل مع نبض الناس ومشاعرهم ومتاعبهم، وده هو اللى بيتعبك..

ده مرض سياسى، اجتماعى نفسى.. لكن مش عضوى.

مرض ميعرفوش الدكاترة يعالجوه، ولا يعرفوا له منطق ولا أساس.

الدكتور"نور الدين البدرى" المشرف على حالتك، قال لى إنه مع فريق المتخصصين فى الـ "كوما" لم يجدوا أسبابا فيزيولوجية لما أنت فيه..

ولما ألححت عليه ليطلب لك علاجا فى الخارج، لقيت إنه غير متحمّس للفكرة.. قلت له إنهم لو أرسلوك لبريطانيا، عندي، فالعلاج أرقى وأحدث..

وجمعت له أسماء وعناوين مستشفيات ومراكز طبية متخصّصة فى علاج الغيبوبة، قال إن الفارق بيننا وبينهم فى هذا المجال ليس كبيرا، وأن التكاليف ستكون باهظة لأن حالات الغيبوبة غير معلومة النهاية.

– يعنى بالعربى، مفيش فلوس كفاية.. والدولة ما تقدرش على مصاريف علاجك فى الخارج

ده اللى استنتجته من كلام الدكاترة، ولو أن ماحدش منهم قال كلام واضح فى أية حاجة!.. مش عارف هل لأنهم مش عارفين حاجة؟.. ولا مش عايزين يكشفوا عن جهلهم؟..

ولا مش عايزين يفضحوا الحكومة.. أو يكلّفوها مصاريف كبيرة؟!

ولاّ خايفين إن علاجك برّه، يكشف الجهل اللى جوّه؟!

أنت عارف إن أنا لا أثق فى أى مسئول هنا، من أول بواب العمارة لغاية بواب البلد كلها.. كلهم قاعدين وعاملين نفسهم بيقوموا بالشغل، لكن الحقيقة أن الوضع فى النازل يوم عن يوم.

تصوّر إن أنا أحيانا، وأنا فى لندن، أخجل أقول إنى من مصر!

تصوّر يا"سلطان".. إحنا اللى اتربينا على حبّ مصر وعلى التضحية والإخلاص والشجاعة والجدعنة، وصلت بينا الحال ننكر مصريتنا؟!

شفت أنت منين جاتلك "الكوما"؟!

٢٢
«لحظـــة»

أنا آسفة يا"سلطان"..

رجعت عن كلامى، لا أستطيع أن أصدّق أننى يمكننى الاستغناء عنك، ولا أريد أن أكون بعيدة عنك..

توهّمت أننى يمكننى أن أعطيك الحرّية ولا أقيّدك بى، وأعيش حياتى لفنى وأنتظر نصيبى من الدنيا.. لكن لا.. لا أقدر على ذلك، يبدو أننى قلت لك أنى أحرّرك من أية مسئولية ناحيتى، وأنا لا أدرى أين أنا!.

ربّما صعبت علىّ حالك، واعتقدت أننى عندما أقول لك هذا الكلام، ستشفى وتخرج من الغيبوبة.

لما راجعت نفسى، ورجعت لنفسى، كنت أرسم بعض الخطوط الأساسية للوحة جديدة.. تذكرتك. أنت علّمتنى وحوّلتنى من مجرد موديل إلى فنانة تشكيلية تلقائية بدائية، وعلى يديك تطوّرت قدراتى، أنت من اكتشف موهبتى، أنت من شجعنى..

كنت أرسم ما خطر على بالى، عصفورة طايرة فى السما، وإنسان ينظر إليها ويحلّق فى السماء، كأنه ينوى أن يطير مثلها.. وطوال الوقت أنت فى خيالى، وعلى بالى.

تركت اللوحة، وهى أول لوحة أبدأ فيها بعد ما جرى لك..

لم أتمكّن من التركيز.. سرحت فى حالى وحالك. فكّرت أن الحياة ليست لعبة.. وأننى لا بد أن أعمل شيئا ما.. لكن ماذا أعمل؟..

جرجرتنى الأفكار وأخذتنى الخيالات.. تهت.

وفى الآخر لقيتك فى خيالى.

ولقيت أننى من غيرك ولا حاجة، أنت صنعت منى الفنانة المصرية المشهورة فى العالم بأسلوبها التلقائي، بسذاجة الفلاحة المصرية وبراءتها وخيالها، وطموحاتها فى حياة بسيطة وهنيّة.

أريد حياة بسيطة وهنيّة معاك يا"سلطان".. لا أعرف غيرك، وأحبّك من كل قلبى وجوارحى، أحبّك بجدّ، وأعرف أنك لا تحبنى..

لكن ربنا يساعدنى وأقدر أخلّيك تحبّنى.

أنا مستعدة أولع لك صوابعى شمع يا"سلطان".. أعمل المستحيل.. أمشى على الميه، أعدّى البحر ولا أتبلش!.. أية حاجة، بس تاخدنى فى حضنك، ونعيش سوا فى تبات ونبات ونخلّف صبيان وبنات.

أنا ماليش غيرك..

وعندى شعور قوى.. إنك أيضا ليس لك غير إنسانة واحدة هى أنا.."لحظة".

بعد أن تخرج من هنا بالسلامة، سأكون فى انتظارك.. وعندى أمل كبير أنك ستكون لى.

٢٣

«سلطـــان»

"بيجماليون"..

أتذكّر الأسطورة.. وأندهش أن ينالنى منها نصيب؟!

لا أعرف إن كنت حكيتها لك يا"لحظة".. حكاية الرجل الذى لا تعجبه النساء، وهو ملك، ونحّات، فيقدم على نحت تمثال من العاج لامرأة مثالية الجمال.

ويعيد له التمثال حبّه للمرأة.. يقع فى حبّ المرأة التى أبدعها، ويهيم بها، ويعاملها كالبشر، والأسطورة الإغريقية تروى لنا أن "بيجماليون" هذا يذهب إلى الإلهة "أفروديت" بالقرابين لتمنح امرأته/ التمثال، نفحة الحياة.

وتلبّى "أفروديت" طلبه، فتتحوّل محبوبته بشرا.. ويتزوّجها!

فهل أنا "بيجماليون" وأنت امرأته الجميلة، التى نحتها وشكّلها بيديه؟..

وهل تتحقّق الأسطورة فى القرن ٢١ . ونتزوّج؟!

لا أعرف.. فأنا فى غيبوبة.. لا أعرف منذ متى أنا على هذه الحال؟..

وعموما حتى لوتحقّقت الأسطورة، الآن، فلا بد أن هناك تعديلات تليق بالفارق الزمنى.. ها ها ها.

يا"لحظة".. عودى إلى صوابك، وركّزى على فنّك، وابحثى عن إنسان يحبّك.. لا إنسان تحبّينه أنت.

٢٤

«جنّـــات»

اكتشفت شيئا جديدا..

كلّ ماتقوله "سماء" فى رسالتها غلط!

فحالتك العاطفية، لا تعنى أنك مصاب بالهوّس الجنسى، حسب استنتاجها، لكن يمكن وصفها بالتشتّت أو التشرّد العاطفى.

وهذا ما أدى بك إلى الغيبوبة..

وصاحب هذه النظرية أو التشخيص هو"سارتر"!

هل تتذكّر يا"سلطان" زميلك القديم فى الكلية "مجد الطوبجي"؟!

كنتم تطلقون عليه اسم"سارتر" لأنه يحب الفلسفة الوجودية وصاحبها الفيلسوف الفرنسي"جان بول سارتر".. وكان دائما يحاول شرحها وإقناعكم بها، بينما كنت وبعض زملائك وزميلاتك لا تقنعون بغير المادية الجدلية والماركسية.

"مجد" هو الذى حذّرنى من التعلّق بك.. وأكّد لى أنك "مش بتاع جواز".. ولم أسمع كلامه.

وثبت مع الأيام أنه على حق، وطبعا اختفى هو من حياتنا بعد الكلية.. لكن الصدفة جمعتنى به فى الأيام الأخيرة. كنت مدعوة كمديرة للتربية الرياضية بمديرية تعليم"الجيزة" لحضور اجتماع كل المديرين مع المدير العام.. اجتماع روتينى كل كام شهر..

وهذه المرة كان هناك ضيف من الوزارة هو الأستاذ الدكتور"مجد محمود الطوبجى" مستشار الوزارة للتربية النفسية.

ومع أن الاسم مألوف بالنسبة لي، لكننى لم أتوقّع أن يكون هو نفسه صديقنا القديم "سارتر"..

وعندما تقابلنا قبل الاجتماع لم أتعرّف عليه من نفسي. ولولا مديرة مكتب المدير- وكنّا نجلس عندها قبل الاجتماع - لما عرفته..

قالت وهى تضع على وجهها المستدير ابتسامة رسمية:

- يادكتور "مجد".. أحبّ أعرّف حضرتك على أنشط مديرة عندنا.. الأستاذة "جنّات رضوان".

قام رجل طويل ونحيل، أصلع، وبلا ملامح تقريبا.. حواجب خفيفة وشوارب رفيعة، وعيون دقيقة تحت نظارة كثيفة، وبشرة سمراء ملساء، وتعبيرات غير واضحة.. وابتسامة معلّقة بغباء على أطراف الشفاه المطوطة فى وجه حزين.

اتجه نحوى، وكنت قادمة لتوى، أمسك بيدى، وهو يصوّب عينيه الصغيرتين فى عينىّ، ثم يخبط بيده الأخرى على رأسه الأصلع ويهتف:

= مش معقول.."جنّات العبيطة"؟!

عرفته فورا رغم شكله الذى تغيّر كثيرا.

تأكدت أنه هو زميلك وصديقنا القديم"مجد سارتر"..

لكننى انزعجت وبدى علىّ الضيق من كلمته هذه.. ولاحظت أن مديرة مكتب المدير، صدمتها الكلمة.. وظهرت على وجهها المستدير علامات استياء رسمى بالغ، أدركه "سارتر" فأوضح لها الأمر.

ثم سألنى هامسا، وقد جلس إلى جوارى:

- على فكرة، حصل إيه مع "سلطان"؟

= ولا حاجة.

- يعنى ماحصلش جواز؟

= لأ.

– يعنى نظريتى كانت سليمة.

لمعت عيناه الضيقتان، وكان كأنما يؤكد لنفسه عبقريته المنكورة.

= فعلا.. مع إنى ما صدقتهاش.

– لغاية دلوقت؟!

= لغاية دلوقت.

وبعد الاجتماع دعانا المدير العام إلى الغداء.. واتفقنا أنا و"سارتر" على لقاء آخر بعد أن علم بماجرى لك وطلب منى أن أيسّر له زيارتك.

والتقينا بسرعة لأنه حدّثنى عن تحوّله إلى عالم نفسى تطبيقي، وأنه درس هذا التخصص ونال الدكتوراه من هولندا بإشراف أستاذ أطلق مدرسة جديدة، فى الطب النفسى اسمها "التكامل العاطفى العصبى".

وحكيت له عن رسالة "سماء" وتحليلها النفسى، فسخر منها وقال إن مدرسة التحليل الفرويدى تجاوزها الزمن، وأن علم النفس التطبيقى تطوّر كثيرا، وأنه مندهش لإصرار بعض الأساتذة الكبار على التمسّك بهذه المناهج البالية.

قلت له إننى لم أكن لأعرفه، لولا مديرة مكتب المدير.

حكى لى قصّة حياته باختصار، قال إنه فقد زوجته– وهى ابنة عمه – فى حادث، وتزوّج من هولندية تعرّف إليها أثناء بعثة الدكتوراه، لكنه طلّقها بعد سنوات قليلة.. بعدما عاد إلى البيت يوما فى غير موعده، فوجدها فى الفراش مع ولد صغير هو ابن البواب.

كادت الصدمة تقتله، أصيب باكتئاب مرضى، ودخل المستشفى للعلاج، وخرج نحيلا ممصوصا مهزوما.. ولم يجد أمامه سوى الانغماس فى الدراسات والأبحاث ووضع المؤلفات العلمية.. وهاهو الآن مستشار الوزراة للتربية النفسية.

وهو يفسّر حالتك مستخدما علم التكامل العاطفى العصبى، فيقول إن ماتعانى منه هو نوع من الاضطراب يمكن وصفه بالتشتّت أو التشرّد العاطفي.

ولأنه يعرفك من أيام الكلّية ولمدة خمس سنوات، ويعرف عن علاقاتك المتعددة، ويعرف عن حبّك لى فقط.. وكان يسمّيك"السلطان السعيد" لتعددّ حريمك.. استمع منى إلى بقية قصّتك حتى الغيبوبة، ثم فكّر قليلا قبل أن يردّد:

= بالضبط.. بالضبط، هى أعراض ما نسميه التشرّد العاطفي. وبالنسبة لـ"سلطان" أنا أربط حالته هذه بعواطفه الوطنية القوية، وأعتقد أن الخلل العاطفى عنده مركّب، ومتداخل مع حبّ الوطن، ومع حال الوطن.

يعنى لمّا مصر تكون تايهه ومش عارفه سكّتها يكون حبيبها زيّها، تايه ومش عارف سكته الوجدانية.

لما كانت مصر مهزومة، لكن مصمّمة على التقدّم وتجاوز الهزيمة.. كان صاحبنا فى حالة حبّ طبيعية، لما مات الزعيم، وضاعت البوصلة، وحصل توهان فى البلد، التوهان صاب "سلطان"..

ولما قلت لك إنه"مش بتاع جواز" كان تخمين وفراسة مني، لكن أنا توسّعت ودرست وتخصّصت، وأقدر أقول إنها حالة تشرّد وجدانى متداخلة مع حال الوطن، لأن مصر هى الحبيبة المثلى فى خياله ووجدانه.

أنا لازم أشوفه يا"جنّات".. أنت عارفه قد إيه هو إنسان عزيز علىّ.

لما قلت الكلام ده لـ"أمير" فرح، ورحب بحضورالدكتور"مجد" بشدة.

وطبعا كان فرحى أكبر.. فربما جاء الفرج على يد الدكتور"سارتر".

٢٥

"سمـــير"

أنت ابن حلال يا"سلطان"

هل تعرف لماذا؟..

لأننا كنا ننوى إصدار عدد خاص عنك كما حكيت لك، فتطوّرت الفكرة واستقر الرأى على أن نكتب عنك فى كلّ عدد..

بعض الزملاء أبدوا ملاحظات جوهرية على فكرة العدد الخاص، منهم من قال إن "سلطان" زميلنا ولا يصح أن تكون المسألة قائمة على المجاملة والزمالة والعواطف، دون اعتبار للمعايير الصحيحة التى التزمناها عند إصدار أعدادنا الخاصة طوال السنين.

وقال أحدهم، إن "سلطان" نفسه كان سيرفض الفكرة، لو لم يكن فى الغيبوبة!

وقال آخرون إن من الأفضل الاهتمام بأزمة "سلطان" والتنويه بأهميته، من خلال موضوعات تنشر فى كل عدد، وليس فى عدد واحد، نروح بعده فى غيبوبة، وننسى "سلطان".

وقبل موعد صدور العدد التذكارى بأسبوع، وكانت معظم مواده جاهزة تقريبا، عقدنا اجتماعا اتفقنا فيه على نشر المواد التى أعددناها، ومجموعها حتى الآن حوالى عشرين مادة، فى أعداد "الوعد" المتوالية، بحيث يضم كل عدد موضوعا عنك.. وهكذا حتى تعود إلينا.

ما رأيك.. أليست هذه فكرة أحسن من فكرتى عن العدد الخاص؟..

أنا رحبت بها بشدة، لأنها تعنى التواصل المستمر بينك وبين الجمهور..

وفى العدد القادم سيكون مقالى عنك هو البداية.

طبعا أنت تعرف معظم أفكار المقال، لكن ربّما لم أذكر لك فكرة أو اثنتين..

مثلا تجربة تنظيمنا السرى أيام الكلية، وحكاية "يوسف السحلاوي" – وطبعا لن أذكره بالاسم – و.. رحلاتك الفنية حول مصر، وهى أشبه ما تكون بكتاب"وصف مصر".. لكن بعيون وقلب وعقل مصرى ١٠٠٪.

ولمّا رئيس التحرير قرأ المقال، بإلحاح مني، توقّف كثيرا عند هذه الفكرة، وسأل عما إذا كان من الممكن تجميع رحلاتك المنشورة فى المجلة باللوحات الملونة، وإصدارها فى كتاب بعنوان اقترحه هو..

"وصف مصر من جديد.. بريشة "سلطان سعيد".

فكرة عظيمة!.. أليس كذلك؟

٢٦

«سمـــــاء»

كنت أنوى ألاّ آتى إلى هنا ثانية..

فقد فشلت فى تفسيرى لحالتك..

وفشلت قبل ذلك فى الفوز بك،

لم تعد أنت تمثل لى سوى الفشل..

لذلك فكّرت أن أبتعد عنك، لكن لم أستطع..

أحتاج إليك.. وأشعر بالهزيمة، ولا أعرف كيف أواجه نفسي، ألفّ وأدور حول نفسى، وبدون أن أدرى أجدنى هنا.

قابلت "جنّات"، وقابلت"هدى" وأيضا"لحظة".. وأعرف أن "ماشالله" تأتى هنا كثيرا، وسمعت أن "راجية" ظهرت، وأنها تزورك.. لكن أين "نادرة"؟!

لم تأت لزيارتك.. ولم تذكرها"جنّات" خلال أحاديثنا، إلاّ نقلا عنّي..

قالت لى إنها لم تر"نادرة" أبدا.. وأن "سلطان" لم يأت على ذكرها أبدا، قبل أن يروح فى الغيبوبة.. ولم تشر إليها إية واحدة من "حريم السلطان"..

فأين هى؟.. ولماذا هى غامضة هكذا؟..

الحقيقة التى قد لا يعرفها أحد، هى أننى تكلمت كثيرا عن "نادرة" مع أننى لا أذكر أننا التقينا، ولو مرّة واحدة.

ولاحظت أن أحدا لا يعرفها، ولم يقابلها أحد.

وقالت لى "جنّات" إنها لا تعلم شيئا عنها، إلا من أحاديثى أنا عنها.

فهل توهّمت وجودها؟.. هل اخترعها خيالى؟..

فى حديث دار بينى وبين "جنّات" وصفتها بأنها المرأة الكاملة الأنوثة التى تعتد بأنوثتها، وتكتفى بها فى علاقتها بك.. وتمنحك إياها مقابل فوزها برجولتك.

لكن أين هى"نادرة"هذه؟.. لا يمكن أن تكون كيانا وهميا، فالرسالة التى قدّمتها وناقشتها ونلت عنها درجة الدكتوراه بامتياز، قامت على بحث تطبيقى بجانب البحث النظرى والتحليل، ولا بد أننى قابلت"نادرة" وأنا أعدّ الرسالة، فقد تعمّدت بحث حالات الـ"سبع جنّات" اللاتى يتكوّن منهن حريمك.. وأنا طبعا بينهن. لكن ذلك حدث من سنين، ولا أذكر الآن كل شىء.

وطبعا الرسالة نفسها أصبحت، فى تقديرى، غير ذات اعتبار. ولو كان الأمر بيدى لسحبتها.

ولو ظهر أن "نادرة" هى شخصيّة وهميّة تصوّرت وجودها، وتخيّلت تردّد اسمها، بين الأخريات، لكن لا وجود لها. فمعنى ذلك أن عنصرا من عناصر البحث فى رسالتى، وهمى، مختلق، متخيّل، لا وجود له واقعيا.

ولا أتذكّر، الآن، أننى تحدّثت معك - قبل الغيبوبة - عنها.

ولن تسعفنى أنت الآن لوسألتك:

= قل لى يا"سلطان".. هل"نادرة" إنسانة حقيقية من لحم ودم، أم هى من بنات أفكارى وخيالاتى المضطربة؟..

حيرتى تزداد، وفشلى يتضاعف.. ولا أدرى ماذا أفعل؟..

أنا فى غيبوبة من نوع آخر.

٢٧

«ماشـــالله»

ليتنى أقدر أن أبدّل معك يا"سلطان"..

يصعب علىّ أن أرى شبابك وفنك، وشمائلك، تغرق فى الغيبوبة.

ندعو الله أن يسمع دعاءنا ويخرّجك من هذه الزنقة، ويفتح لك أبوابه الواسعة.

قالوا لى إن الدكاترة مسرورون لأنك متجاوب، وتحس بأشياء مما يحدث حولك، قلت ربنا كبير، وفرجه قريب.

كان أملى أن تكون فى كامل عافيتك لأخبرك أننى قرأت كفّك وعندى شعور قوى بأن نجاتك ستكون على يد شابة قريبة من سنك..

وأن هذا سيحدث فى لحظة مهمة، فى حياتك.. وحياتها وحياة البلد كلها.

ومصيرك ترجع لحالك وعافيتك، وربنا ليس غضبانا عليك، هو بس زى ماتقول، بيديلك إنذار..

وكفّك التى قرأتها براحتى منذ قليل، مليانه بشائر خير، ونيّتك سليمة، وآخرتك فيها هناء.. وسعادة، ورضاء وهدوء.

عقل بالك بس تعبان شوية، جاله شوية فكر.. وعنده زمته، عامل زى طاحونة دايرة على نفسها..عايز رواق، وراحة بال، وهو يرجع يشتغل زى الحصان.

طول عمرى وأنا بقول إنك ملاك يا"سلطان".. فى فنك وذوقك، وأخلاقك، وعشرتك الطيبة وحبّك للناس، وحتى البنات والستات.

ماسمعتش أبدا واحدة بتشتكى من قسوتك، ولا واحدة قالت إنك مفترى، ولا شكت واحدة من هجرك لها أو أية إساءة من أى نوع..

وحتى الست "هدى" ما قالتش عنك إلا كلّ طيب.. وكمان الدكتورة "سماء".. صحيح إنها فهمتك غلط، وكانت نيتها مش سليمة معاك، لكن ما جابتش سيرتك إلا بالطيب برضه.

أما "جنّات" فهى ياحبة عينى اللى تعبانة معاك طول الوقت، ومخلصة، ومش متأخرة فى أية حاجة، وموجودة هنا صبح وليل.

لكن اللى فى كفك حاجة مش ح تسعدها، لا هى ولا غيرها.. واحدة بس هى اللى حتفرح بيك بعد ماتطلع بالسلامة، من البير اللى أنت فيه ده، واحدة بس اللى محتاجة لك أكثر من الكل..

واللى أنت، من غير ماتدرى، بتحبّها حبّ مالوش آخر.. حبّ مالوش دوا.

وأنا كل ما أفكّر فيك، أحس أن ربنا كان عايز يسعدنى بيك، وأنك خليتنى أعيش حياتى.

وبأدعيلك طول الوقت، ربنا يهنيك زى ماهنيتني.

وحاجة غريبة عايزة أحكى لك عنها، شفت منام، اللهم أجعله خير..

شفتك لابس أبيض فى أبيض وفى أيدك حمامة بيضا.. وراكب فرس أبيض، وماشى فى طريق أبيض فى أبيض.

ياترى ده كله معناه إيه؟..

٢٨

« راجيـــة »

"سمير نور" رجل عظيم.

مع أنه زميلى وزميلك من سنين طويلة، لكن المقال الذى كتبه عنك هذا الأسبوع، كشف لى عن ملامح راقية فى شخصيته، لم أكن أعرف عنها شيئا من قبل، روح الفكاهة والسخرية الذكيّة اللمّاحة، وقوة الشكيمة، والإصرارعلى المبادئ، والثراء والتنوع الثقافى والفكرى والفني..

شىء يدعو للفخر.

كتب عنك كما لو كان يكتب عن نفسه، وأكثر.

بسلاسة وطلاقة وشمم.. ببساطة وخفة ظل وقوة منطق معا.

والحقيقة أننى كنت أتطلّع لقراءة المقال بشوق، كنت متلهّفة لأن أعرف المزيد عنك وعن أيام شبابك وبداياتك وفنك..

ولا أعرف إن كان"سمير" أطلعك على محتوى المقال أم لا. لكن سأقترح عليه أن يأتى ويقرأه لك بنفسه.. فلا أريد أن أختصره حتى لا أفسد عليك متعة النص كله.

عموما ليس هذا فقط ما أريد أن أحدثّك فيه، هناك ما هو أهم، فيبدو أن محاولات "أمير" وإلحاحه على الأطباء بضرورة سفرك للعلاج فى الخارج، تقترب من النجاح. وهو يطلب علاجك فى بريطانيا بالذات – عرفت منه مؤخرا أنه متزوّج من إنجليزية ويعيش ويعمل فى لندن – و قال لى إنه ينتظر الردّ هذه الأيام.

والغريب فى الأمر، أنه عاد يسألنى ذات السؤال:

= لكن يا أستاذة "راجية".. عفوا يعنى، أنتى ليه ما تجوزتيش "سلطان"؟!

وطبعا هذه المرّة كان هناك مجال أوسع للكلام، وكان التعارف بيننا قد اكتمل. تحدّثت إليه بإسهاب، وأخبرته فى النهاية بأننى الآن مستعدة وموافقة ومنتظرة موافقتك على الزواج.. لأننى - كما شرحت لك، وله- عرفت معنى الحبّ، وعرفت وتأكدت من أننى أحبّك.

فهل تحبّنى يا"سلطان"؟!.. هل تتزوّجني؟..

على فكرة، لما طلبوا منى أكتب عنك فى المجلة، رحّبت بحماس، لكن لما بدأت أكتب، وجدت أن كلامى لا يصلح للنشر!..

ما أقدرش أكتب عنك من غير ما أكشف أسرار وخفايا، لازم أستأذنك قبل نشرها.

اعتذرت، قلت لهم: خلّونى أنا فى الآخر.

٢٩

«جنات» و«ماشالله» و«سماء»

هل تصدّق ما حدث يا"سلطان"..

مرّة واحدة لقيت نفسى مع "ماشالله" والدكتورة"سماء"!

رجعت من الشغل على هنا على طول، بعد الظهر، فقابلتنى "ماشالله".. ولم نكن تقابلنا من سنين، آخر مرة شفتها كانت عندك فى المرسم من سنتين تقريبا.

عندى إحساس غريب ناحيتها، عمرى ما فكرت فيها كغريمة لي، طبعا لأنها أكبر منى بكثير، وربّما لأنها تعاملنى باحترام، وبحبّ أيضا.

وربّما لأننى لا أعتقد أنك ستتركنى من أجلها.

المهم، بعد دردشة سريعة عن تطورات حالتك، بان لى أنها مهمومة جدا بما جرى لك.. أحسست بأمومتها لك!

وفجأة ظهرت "سماء".. سمعت أنها زارتك من قبل، وكنت قلقة تجاهها، خصوصا لمّا عرفت أنها تطلّقت، يعنى رجعت تحوّم حولك، حتى وأنت فى الغيبوبة؟!

تحدّثنا عنك طبعا، وتحدّثنا عن أخيك "أمير" وإلحاحه على طلب سفرك للعلاج فى الخارج.

وتحدثت الدكتورة "سماء" عن حريمك.. تصوّر؟!

دخلت للموضوع من مدخل عجيب، أقرّت لنا أنها أخطأت فى حقك مرتين. لم نكن نحاكمها، أو نستنكر أفعالها.. ومع ذلك بادرت هى بالاعتراف..

قالت إنها تتمنى لو يكون مسموحا لها بسحب الدكتوراه!

تصوّر..

= ليه؟!

سألناها أنا و"ماشالله" فى نفس واحد، وباندهاش كبير.

قالت: لأنها إساءة لـ "سلطان" وتقوم على تحليل بمنهج قديم، وفيها نواقص كثيرة.

= زى إيه؟

خرج السؤال من فمى بأسرع من قدرتى على التفكير.

– مثلا.. حكاية "نادرة".

= مالها؟!

جاء السؤال فى نفس واحد ايضا منى ومن "ماشالله".

– باين عليها حكاية وهمية.. ولا فيه "نادرة" ولا حاجة.

= يعنى إيه؟

– يعنى أنا مش فاكرة إنى قابلت واحدة اسمها "نادرة"..هل حد فيكم يعرفها أو قابلها؟.. قابلتيها يا"جنّات"؟.. قابلتيها ياست "ماشالله"؟

قلت:

= أنا أعرف بوجودها من خلالك يا"سماء".. أنت حدّثتينى عنها.. لكن أنا شخصيا ما قابلتهاش أبدأ، مع أنى قابلت الباقيات جميعا.

ظلّت"ماشالله" صامته، وكانت – فيما يبدو– تحاول استعادة شريط طويل من الذكريات.. ثم:

– مش فاكرة أبدا إنى قابلت فى حياتى كلها واحدة بالاسم ده.

بدأت "سماء" تتحدّث إلى نفسها، وهى حالة أعرفها عنها، وتعرفها أنت بالتأكيد، تصيبها عندما تكون مزنوقة أو محرجة.

= يعنى يا"سماء" مش معقول تكونى تخيلتى "نادرة" دى وخلقتيها من العدم.. مش "سلطان" مرّة كلّمك عنها؟.. حاولى تفتكرى يا"سمسم".. ماتبقيش مضروبة كده طوال الوقت، إمتى"سلطان"جاب سيرتها؟.. واحدة واحدة حتفتكرى كل حاجة، إمتى كنتم بتتكلّموا عن "نادرة"؟..

أيه المناسبة؟.. ليه جت سيرتها بينكم؟..

هل هو اللى ذكر اسمها؟..

ضرورى يكون هو، أنت يا"سماء" ماكنتيش تعرفى عن "نادرة" دى أية حاجة.....

آآآآآآآآآآه..

نطقت أستاذة التربية النفسية بجامعة عين شمس، وكأنها تطلق صرخة ما قبل الولادة..

= الحكاية جت من اللخبطة...

هو.."سلطان" يعني، كان بيكلّمنى عن امرأة نادرة الوجود، موجودة فى خياله كفنان.. ولها عنده ملامح خاصة، وصفات وقدرات وميزات، نادرة.. نادرة فى كل شىء.

تعتمد على كونها امرأة، لا أكثر ولا أقل.

تكتفى بأنوثتها.. تملأ بها محيطها، وتشبع بها رجلها، وتعامل رجولته وتستمتع.. وتمضى فى حياتها.

يعنى هى صورة خيالية مثالية لمجمل جنسنا الأنثوي، يعنى هى حواء. البدر فى تمامه.

يعنى أنا اللى جسدت خيالاته وشطحاته، وصنعت منها سابع حريم السلطان.

توقفت "سماء" عن الكلام.. وتمتمت وغمغمت بعبارات غير مفهومة، وصوت غير مسموع.

خلعت نظارتها ومسحتها بورق أبيض ناعم، وأعادتها، ثم نظرت إلينا ونحن نجلس فى ركن صالة الزوار بالمستشفى، وقالت بصوت رخيم:

– مش قلت لكم أنى أسأت له مرتين.

= لكن إيه المرة التانية؟

سألت بهدوء وهمس.

– آه.. ما أنت عارفه. لما حاولت بهبالة أكوّش عليه، وأستفرد بيه، وأتخلّص منكم كلكم.

سألتها "ماشالله":

= طب والعمل يادكتورة؟..

– أنا خلاص، عرفت غلطى، وعايزه أعتذرعنه، وجايه أطمئن على حالته.

قالت لنا"ماشالله" كلاما غريبا بعد ذلك، قالت إنها تبنّت "سلطان"..

من أول مرّة تحس بموهبته، وأنها لم تسبب له أية متاعب، وأنها لم تكن تطلب منه أى شىء. ولم تكن ترغب فى الانفراد به أو الزواج منه، أو أى شىء.

وأن ماجرى بينهما كان نوعا من الحنان.. والاحتياج، والرحمة، والانجذاب الذى لم تكن هى ولا هو يملكان مقاومته أو التخلّص منه، شىء زى المغناطيس، زى الجاذبية الأرضية ونظرية "نيوتن".

يا"سلطان".. ليتك تفيق من هذه الغيبوبة الآن.

أريد أن أطمئنك علىّ، أنا خلاص، خرجت من دائرة جاذبيتك.. برغبتى.. وأعفيك من مسئوليتى.. ولك الخيار.

ولا أعرف كيف سيكون اختيارك.. ماذا سيكون؟.. من ستكون"نادرة" التى فى خيالك؟.. من ستجسّدها على الأرض؟..

هل هى أنا.. أم"لحظة"؟.. أم"هدى"؟.. أم"ماشالله"؟.. أم"سماء"؟..

أم تكون"راجية"هى امرأتك التى تسميها– فى عقلك الباطن –"نادرة"؟!

٣٠

«هـــدى» و«أميـــر»

سمعت، لا.. قرأت فى الصحف، ما قاله شقيقك "أمير" عن ضرورة سفرك للعلاج فى الخارج. وقال أن هذا هو الحل الوحيد لخروجك من الغيبوبة..

وأحسست من كلامه أن هناك عائقا مالياً.. فقررت البحث عن "أمير" لمعرفة تفاصيل الموقف.. وقلت إنه بالتأكيد سيكون هنا فى المستشفى،

وأمضيت ساعات، أنتظر حضوره، فلا أحد هنا يعطى معلومات عن أى شىء، لأى أحد.

ولأنه لا يعرف وأنا لا أعرف، كيف أتصل به، فقد أوصيت بعض الممرضات والموظفين، ودفعت المعلوم، ليخبرونى بوصوله ويخبروه برغبتى فى لقائه.

قابلته أخيرا.. وكان فى حالة توتّر شديد، قال إن كلّ يوم يمضى دون سفرك مخصوم من فرص علاجك.

قلت متسائلة: وما المانع فى السفر؟

نظر إلىَّ بعيون متفحّصة، وهو يردّد مندهشا:

= ما المانع؟!..

ثم بما يشبه الصراخ المكتوم:

= مطلوب مليون جنيه!

قلت:

– أنا جاهزة.. وسأتكفل بكل شىء، "سلطان" أغلى عندى من كل أموال الدنيا يا أستاذ "أمير".

قال:

= ياه.. أنت للدرجة دى بتحبّيه يا"هدى" هانم؟!..

قلت:

– هو فيه حدّ مابيحبّش"سلطان"؟..

قال:

– لكن ده مبلغ رهيب ياهانم!

قلت:

= كل شىء يهون، بس يرجع لنا بصحته وعافيته وفنه وقلبه الكبير.

سكت طويلا.. ونظر إلىّ متفحّصا، وغاص فى تفكير عميق داخل نفسه، ثم تنحنح، كقاض يتهيأ لإصدار حكم قاس، قبل أن يقول لي:

– أنا آسف يا"هدى"هانم، لأن العيلة لا يمكن تقبل عرضك ده.. إحنا ناس عندنا كرامة، ومانقبلش العطايا، حتى ولو بنموت.

انفجرت فيه:

= عطايا إيه ياأستاذ.. أنت ماتعرفش حاجة، ماتعرفش"سلطان" بالنسبة لى يساوى إيه. أنت عايش فى ضباب بريطانيا، ومش دريان باللى حاصل هنا فى مصر.

صمم على رأيه، وشكرنى على كرمى الحاتمى – كما قال– وتركنى ومضى.

لا أفهم حكاية أخيك هذا؟..

هل يريدك أن تخرج من الغيبوبة، أم لا؟!.. أم يريد لك أن تخرج من مصر نفسها؟!

وحتى لو كان هدفه خروجك، كيف سيتم ذلك؟ ولماذا يرفض عرضى ..

لا أفهم شيئا.. لكننى لن أسكت.

٣١

«سلطــــان»

ياااااااااااااااه!

لأول مـرة أحس أننى أحس بما يدور حـولى بدرجـة أعلى من أى وقت مضى منذ دخلت هذه المتاهة التى يسمّونها الغيبوبة.

هل نجـحت خطة الأطبـاء المشـرفين على عـلاجى ورئيسـهم الدكـتور "نورالدين البدري" فى تحسين حالتى وزيادة قدرتى على الإحساس وإدراك ما حولى؟..

فى الفترة الأخيرة بدأت أشعر أن هناك تطوّرات مهمّة تحدث، ليس لى فقط ولكن للبلد كله..

ويبدو أن نصيحة الدكتور"نور" لكل من يسمح له بزيارتي، بأن يحدّثنى عن المستقبل، وأن يتابع معى أحداث الوطن، جاءت بثمارها،

حتى أننى الآن أفكّر مع نفسي، وليس كردّ فعل لما حدّثنى عنه أحد من زوّاري، لاحظت مثلا بسعادة بالغة، التطوّر الذى دفع "سمير" وأسرة "الوعد" لإعادة النظر فى فكرته، وتعديلها بالمنطق، وتحويلها من عدد خاص، إلى حملة صحفية ناجحة.

ولاحظت أن "سماء" تراجعت عن موقفها منى وحتى عن الدكتوراه.

وأن صديقى وزميلى القديم الدكتور"سارتر"- وكنت قد كدت أنسى اسمه "مجد محمود الطوبجي"- أصبح عالما نفسيا يطوّر مناهج هذا العلم المهم، ويرغب فى زيارتى، ولديه نظرية تشخيصية وعلاجية جديدة.

وحتى "راجية" طوّرت أفكارها، وتدعونى لتطويرأفكارى عن الزواج.

و"لحظة".. متأرجحة كما هى دائما، فى لحظة، تريد تحريري، ثم تعود فى اللحظة التالية لتطلب تقييدى بها، ولا أحد غيرها.

و"ماشالله" رائعة كالمعتاد منها.

و"هدى".. مستعدة لتقديم مليون جنيه لكى أعود للحياة، وأعود لها!

ومع ذلك فهى لا تشترط أية شروط، ولا تطالب بالحبّ ولا الزواج.. فقط الصحبة.

أما "جنّات" فملاك من الجنة، تحبّنى لدرجة أن تتمنى لى السعادة ولو مع إنسانة غيرها؟!

وتقول إن الاختيار الحرّ متروك لي.. ومع ذلك تؤكد أنها لن تعرف غيرى.

ومن زوّارى بلغنى أن هناك ما يسمونه "حراكا سياسيا" تعيشه مصر، وأن كل الفئات تقريبا انطلقت فى خطوات أوّلية تعبّر عن نفسها ومطالبها ومصالحها..

يعنى مصر بدأت تتحدث، بنفسها، عن نفسها.. والوقت الذى ستتحرّك فيه لتعبّر عن نفسها، بالعمل وليس الكلام والهتافات والمظاهرات والاعتصامات، لم يعد بعيدا..

هل سيكون لى شرف المشاركة فى هذا كله؟..

يارب ساعدنى.

٣٢

«هدى» و«جنّات» و«أمير»

قابلت "جنّات" لأناقشها فيما حدث بينى وبين"أمير"..

تصوّرت أنها بحكم الجيرة القديمة، يمكن أن يكون لها عليه دلال أو تأثير، خاصّة وأنها الحبيبة الرسمية المعترف بها من أهلها وأهلك ومنهم"أمير" وكانوا ينتظرون- كما فهمت منها- أن تصبح زوجتك يا"سلطان".. من زمان.

"جنّات" مدهشة.. لأنها اختارت ألا تدخل فى نزاع مع غيرها ممن ينافسنها عليك.. لكن ذلك لم يبعدها عن مسئوليتها نحوك.

سألتها عما يمكن عمله لإقناع "أمير" وعائلتك بقبول فكرة تحمّلى لتكلفة سفرك للعلاج فى الخارج.

فوجئت بها عنيدة مثل أخيك، رفضت الأمر من حيث المبدأ، وأيّدت "أمير" فى موقفه، وأضافت:

= إحنا صحيح مش أغنيا.. لكن كرامتنا هى كل ثروتنا، أخلاقنا ومبادئنا لا تسمح لنا بقبول ماتعرضينه، أنت إنسانة كريمة وربنا فاتحها عليك، لكن هناك حدود.. ونحن لا نقبل الشفقة، ثم إن هذا مبلغ رهيب، لا نقدر حتى على رده، لو فكّرنا فى قبوله كسلفة طويلة الأجل.

لا..لا يا"هدى"هانم، وألف ألف شكر على روحك الطيبة ومبادرتك الكريمة.

- لكن.. يا"جنّات" ياحبيبتي، وأنت فعلا حبيبة قلبي، لوقفتك النبيلة، الموقف صعب وحساس، وكل يوم يمرّ مخصوم من فرصة "سلطان" فى العودة للحياة ولنا.. لا بد من تصرّف سريع، بالعقل، مش بالانفعالات.

أنا يعني معاى كام مليون جنيه؟.. لكن إيه فايدة المال لو ماخدمش فى موقف زى ده؟.. عموما أنا مصممة على الوصول لحل سريع لعلاج "سلطان".

= وأنا مصممة برضه، لكن من غير إهانة أو جرح لكبرياء حدّ.

– طب إيه البديل؟.. منين نجيب المبلغ ده؟.. الحكومة والمجلة ونقابة الصحفيين ونقابة التشكيليين كلهم مجتمعين مايقدروش يدبّروا المبلغ.

– أنا عارفة.. "أمير" شرح لى الوضع ده.. وفكرته أننا نشوف الجهات دى كلّها حتدبّر كام، ونكمّل إحنا الباقي.. وهو حاليا بيجمع البيانات والأرقام مع المسئولين، وراجع هنا يقول لنا النتيجة.

= كلام معقول.. لكن الوقت لازم يكون فى حسابنا، وعموما أنا ممكن أكمّل المبلغ الباقى.

– علشان الاستعجال، ممكن أقنع "أمير" يفكرتك دي.. بشرط إننا نشارك ونسدد لك الباقى اللى حتدفعيه مقدما، وطبعا مش حننسى ناخد منك مساهمة مناسبة، لكن أنا لازم أشارك و"أمير" طبعا، وعائلة "سلطان" وكل اللى بيحبوه...

آه... خطرت على بالى فكرة دلوقت حالا، ليه مانفتحش باب للاكتتاب فى تكاليف العلاج من خلال المجلة، يساهم فيه كل أحباب "سلطان"؟!

= فكرة عظيمة يا"جنّات".. لكن الوقت مش فى صالحها.

– بالعكس، أنا دلوقت أقدر أوافق على رغبتك فى دفع المليون جنيه، بشرط أن نعيدها لك بعد جمع كل ما يصلنا من كل الجهات والأفراد.. المهم، ياريت "أمير" يوافق.

– يوافق على إيه؟

فوجئنا بـ "أمير" فوق رأسينا ونحن جالستان "جنّات" وأنا، فى استراحة ملاصقة لغرفة "سلطان"..

– ابن حلال

قالتها "جنّات" بنبرة أخت تتحدّث إلى أخيها، وليس شقيق حبيبها، وأضافت:

جيت بالضبط فى الوقت اللى إحنا عايزينك فيه.

وشرحت له باختصار ماتوّصلنا إليه.

استمع إليها بهدوء وغبطة وبدت علامات ارتياح ترتسم على وجهه، ثم قال:

– مش تسمعوا أولا أنا وصلت لإيه؟..

أخرج أوراقا من جيبه، وراح يعلن أن وزارة الثقافة تمكّنت من طلب العلاج فى الخارج، وتم رصد ١٠٠ ألف جنيه فقط، ونقابة الصحفيين ستدفع من صندوقها ٥٠ ألفاً والمجلة ٥٠ ألفاً ونقابة الفنانين التشكيليين ٥٠ ألفاً. يعنى المجموع ربع المبلغ..

= وبعدين.. إيه اللى بتقترحه؟

سألت أنا.

وسبقت"جنّات"قائلة:

– أنا من رأيى، ويا ريت توافقونى، إننا نقبل شيك بالمبلغ كله من "هدى" هانم دلوقت، ونبدأ إجراءات السفر والحجز والترتيب مع المستشفى فى لندن فورا.. وبعدين نحصّل المبالغ من كل الجهات دى، ونكلّم "سمير نور" فى المجلة يعرض فكرة الاكتتاب.. ثم نردّ لـ"هدى" فلوسها كلّها إلا ما نوافق عليه من مساهمة مالية منها..

ردّ "أمير"على الفور، وبحماسة:

– أنا معاك يا"جنّات" فى كلّ ده.. وعندى فكرة إضافية كنت برتبها فى دماغى الأيام اللى فاتت، ليه مانعملش معرض كبير لأعمال"سلطان"؟.. أهو من ناحية يفكّر الناس بيه، بعد غيابه فى الغيبوبة، وكمان يجمع أموالاً من بيع اللوحات.. يعنى يبقى علاجه على حسابه.

٣٣

الدكتور «مجـد»

لم يخطر ببالى أبدا أن أراك على هذه الحال بعد أن فرّقتنا سكك الحياة، ياصديقى العزيز.

وثق أننى سأبذل كل طاقتى وعلمى وخبرتى العملية فى الطب النفسى الحديث، لأخرجك من هذه القوقعة.

وأنا أسميها قوقعة الغيبوبة، لأنها آلية يلجأ إليها الإنسان عندما يضطرب كيانه النفسى والعصبى ويصطرع مع عقله الباطن.

عموما، الأسلوب الذى تعتمد عليه مدرسة الدكتور"روى مارتينا" يقوم على اللمس للاتصال بالعقل الباطن، بدلا من الاستجواب. ويستفيد من أسلوب الإبر الصينية فى فتح مسارات الطاقة المسدودة فى الجسم، دون استخدام إبر طبعا.

ودعنى أطلعك على محور نظرية"مارتينا" فهو يقول إن نوعية حياتنا هى التى تحدّد كيفية تكوّن شعورنا اليومي.

وأن ردود أفعالنا تجاه ظروف حياتنا، والطريقة التى تعمل بها عواطفنا تؤثر على أفكارنا، ومشاعرنا، وكل خليّة حيّة فى أجسامنا.

وعقلنا الباطن "اللا شعور" يشكّل سلوكياتنا، وهو مبرمج من واقع تجاربنا وخبرات حياتنا المسجّلة فيه.

وعواطفنا الناتجة عن التجارب الأليمة، تغلق مسار الطاقة فى أجسادنا، فنتأثر جسديا وعاطفيا واجتماعيا، وعصبيا وحتى ماديا.

وهذا فى تقديرى هو- للأسف - ما جرى لك أيها السلطان السعيد.. وسوف أطلب رسميا السماح لى بالتدخّل والمساعدة فى العلاج لإخراجك من هذه القوقعة.. بفتح مسارات الطاقة فى جسدك.

ولو نقلنا الحديث إلى مصر، التى أعتقد أن مشكلتك سببها تداخل عواطفك الشخصية مع عواطفك نحوها.. فالقول الفصل هو أن مصر، التى هى فى خاطرى وفى دمي، وفى خاطرك وفى دمك، تمرّ- ولاغرابة- بحال مشابهة، اصطرعت العواطف والأهداف مع التجارب والخبرات، وحدث انسداد فى مسارات الطاقة نتيجة للخبرات الأليمة والهدر المتواصل للخلايا الحية، والعلاج هو فتح مسارات الطاقة الحية.. تحريك طاقات الأمة، إطلاق روح مصر المخنوقة فى قوقعة الغيبوبة.

٣٤

"هـــدى"

لم يخطر بخيالى أبدا أن يحدث ماحدث طوال يوم أمس..

استطعت بمساعدة "جنّات" و"ماشاالله" أن نحقّق المعجزة الصغرى، اجتمعنا جميعا نحن"حريم سلطان".. فى وقت واحد ومكان واحد..عندى فى الزمالك!

تصوّر؟!

كان لا بد من تحرّك سريع لجمع المليون جنيه، ووضع الترتيبات كلها، حتى تسافر بأسرع ما يمكن إلى لندن للعلاج.. لنحقق المعجزة الكبرى، خروجك من الغيبوبة وعودتك لنا.

قلت إن الحلّ هو أن نجتمع كلّنا ونعتبر أنفسنا فى حالة طوارئ..

واستجابت كل الموجودات فى مصر، لأن "لحظة" كانت فى "برلين" مع معرض جديد لأعمالها الفنية.

جاءت "راجية" أولا.. ولم نكن قد تعارفنا أو تقابلنا، فقط نسمع عن بعضنا بعضا، وأقرأ لها كثيرا كتاباتها المتميزة فى "الوعد"..

لاحظت انبهارها بالفيلا.. واهتمامها بالتجوّل فيها لمشاهدة اللوحات.. لوحاتك التى رسمتها لى، وغيرها.

وحضرت "جنّات" بعد نصف ساعة تقريبا، وقالت إنها تمكّنت من الاعتذار عن عدم القيام بإحدى المهام الروتينية، وانتدبت لذلك أحد مساعديها.

وروت لنا-"راجية" وأنا- ذكرياتها مع الفيلا!..

قالت إنها من سنين طويلة، كانت تأتى إلى الزمالك، وتحوم حول هذه الفيلا "فيلا فخرى" وهى فى حال من الحقد والاضطراب العاطفى والنفسى، وكادت أكثر من مرة، تهاجمنا - أنا وأنت يا"سلطان"- وتقتحم علينا المكان، لأنك كنت تأتى وتبقى هنا أوقاتا طويلة لترسم لى البورتريه..

واتجهت فورا نحو الصالون الرئيسى عندما علمت أن اللوحة التى رسمتها لى وقتها، معلّقة هناك.

وتركناها وبقينا فى غرفة المعيشة الرئيسية .. اخترتها لتكون مكان اللقاء، بعيدا عن الجناح الشرقي، والسفرة، وجناح الضيوف، وغرف النوم، وطبعا بعيدا عن غرفتى المفضّلة التى أسمّيها، بينى وبينك، "استراحة العاشقين" وهى - كما تعلم أنت وحدك- مرتع لقاءاتنا الدافئة المثيرة.

مضت دقائق قليلة سمعنا بعدها صوت الجرس، وجاءت"ماشالله".

والغريب أنها لم تكن مبهورة بالمكان!.. أدهشنى ذلك، وضايقنى لدرجة ما..

ولاحظت أنها أيضا اهتمّت بمشاهدة لوحاتك المعلّقة على جدران الفيلا.. وقالت بسعادة غامرة إنها كانت الموديل لكل هذه اللوحات.. وعديد غيرها. ودعتنا للمرور عليها لأنها أول أعمال فنان شاب تنبأت هى له بالمستقبل.. وتحقّقت نبوءتها.

وجاءت الدكتورة"سماء".. كنت التقيتها من قبل، والحقيقة أنها لم تدخل قلبى، لا أعرف لماذا بالضبط؟..

عصبيتها؟.. تعاليها؟.. صفاقة حديثها أحيانا؟.. لا أدرى.

لم تسأل عن لوحاتك، ولم تبد أية علامة إعجاب، أو حتى ارتياح للمكان.

كل ما كان يهمها هو أن تتحرّى، بطريقة أو بأخرى، كيف تيسّر لى كل هذا الثراء..

وحاولت أنا تجاوز أسئلتها، بحديث عام، لكنها كانت تراوغنى وتعود لتسأل بدقة، عن عائلتى وثروتى.

ووجدت كلامها عن المال فرصة للدخول فى الموضوع الذى اجتمعنا من أجله.

لكنها غيّرت اتجاه الحديث عندما تساءلت عن سر دعوتى لـ "حريم سلطان" فقط؟..

دون حضور "أمير" و"سمير" مثلا؟..

وقالت إن هذا الحفل يذكّرها بمشهد رهيب فى التاريخ المصرى الحديث هو "مذبحة القلعة".. وضحكت بعصبية شديدة، وهى تسألنى:

= أوعى تكونى مدبّرة لنا حاجة زى كده يا "هدى"؟!..

صدمنى كلامها وتلميحاتها القاسية، ولم أعرف ماذا أقول لها عن عدم دعوة "أمير" و"سمير"..

الحقيقة هى أننى لم أفكّر إلاّ فى الـ "سبع جنّات"، ولو أننى تأكدت أنهن ستة فقط.. والسابعة فى خيال الفنان "سلطان" أو عقله الباطن!

ربّما كان عقلى الباطن يدبّر لهن فعلا نوعا من أنواع المؤامرة، لا أدرى.

وأنقذتنى "جنّات" فأجابت بدلا منى، قالت:

– كان لازم نتقابل كلّنا من غير لا "سمير" ولا "أمير".. فالموضوع يخصّنا أساسا.. وعموما همّا عارفين المطلوب منهم وبيعملوه، الدور والباقى علينا.

قالت الدكتورة "سماء" وكأنما تسدّد لى ضربات تحت الحزام:

= ياريت كمان كان معانا الدكتور "نور" والدكتور "مجد".

قرّرت أن أقطع عليها طريق العكننة، وقلت متضاحكة:

– عموما فى الأحوال دى اللى تحتاج لطوارئ وحركة سريعة، ما يجيبها إلا ستّاتها.. مش كده ولاّ إيه ياجماعة؟

همهمت معظم الموجودات بالتجاوب والتأييد لكلامى.

وقالت "راجية":

– على فكرة، المجلة من الأسبوع اللى جاى حتنشر بداية حملة الاكتتاب.. وإحنا متوقعين تجاوب كبير جدا.

= وهل نشرتم عن تشكيل لجنة لإقامة معرض شامل لأعمال "سلطان"؟..

– نشرنا لأن "سمير نور" أخو الدكتورة "سماء" فى اللجنة، ويجمع كل لوحاته وكاريكاتيراته لعرضها فيه..

أجابت "راجية".

وسألتنى "ماشالله":

= واللوحات اللى هنا حتعرضوها كمان؟..

ارتبكت، فأنا اشتريت هذه اللوحات. والبورتريه الذى رسمه لى، لا يمكن عرضه فى مكان عام.. ولا يمكن أن أستغنى عنه!

وجدت "راجية" حلا، وقالت وهى تكاد تقرأ مايدور بداخلي:

– طبعا الأمر يرجع لـ "هدى" بالنسبة لصورتها الخاصة، لكن ممكن اللوحات الأربع تعرض ونكتب عليها أنها مباعة، أو مستعارة مؤقتا وليست للبيع.

– ياريت!

قالتها "ماشالله" بتوسّل من ترغب فى استعادة شبابها الذى كان.

ولم أجد مفرا من الموافقة على فكرة الاستعارة، فليس فى نيتى الاستغناء عن هذه اللوحات أو غيرها من أعمالك التى بحوزتى،

وطبعا لم أكشف لهن، أو لأى أحد فى الدنيا، عن اللوحات التى رسمتها بالألوان المائية فى دفتر اسكتشات كامل أحتفظ به فى مكان أمين، وفيها ترصد مطارحاتنا الغرامية، أنا وأنت، فى "استراحة العاشقين"!

آه.. كم أسعدتنى، وكم أسعدتك يا"سلطان"..

وكم أضيق بغيابك عنى.. لا بد من أن نسرع بعلاجك.

مائدة الغداء التى جمعتنا، كسرت كثيرا من الحواجز بيننا.. أطلقت ألسنة كانت معقودة. وحرّكت مشاعر كانت مكبوتة. ووطدت روابط كانت مهزوزة.. ويبدو أن الطعام هو كما يردّد كثير من المفكرين والفلاسفة ورواد الحركات الاجتماعية، مغناطيس إنسانى واجتماعى وروحى بين البشر، فقد أعدت اكتشاف نفسى وأنا أستضيف الـ "سبع جنّات" – وربّما كانت "نادرة" كروح، أو فكرة مثالية خيالية، تشاركنا حفلنا– اكتشفت مثلا، أننى قادرة على المواجهة والتعامل مع غريماتي، قادرة على الاعتداد بنفسى وبما أقدمت عليه، قادرة على تفهّم الأخريات، وتقدير أحوال، ومتطلبات، وظروف، وعقلية، وحتى عقد، كل واحدة.

ومع أننا كنا قد تطرقنا لأحاديث حول الطعام والعطور والديكورات والملابس والموضة والزواج والإنجاب وعمل المرأة وصراعها مع الرجل.. وتكلّمنا حتى فى الفن والدراما والسياسة والمال..

فقد وجدنا وقتا كافيا للسمر والغناء والاستماع للموسيقى، والرقص..

حدثتنا "جنّات" مثلا عن أهمية الرقص وتاريخه وكيف أنه سبق ابتكار الإنسان للغة، وكان لغة وحده، وكيف استخدم فى العبادات..

وكيف أصبح لغة العاشقين والعاشقات..

واكتشفنا أن "جنّات" الهادئة الجادة، تتمتع بموهبة لا تنافسها عليها إلا راقصة محترفة.. وقالت لنا مامعناه أن أمها أفهمتها وهى تعدّها للزواج، أن الزوجة الراقصة لزوجها تكسب حبّه على مدى أطول وأقوى من غير الراقصة!

ولم تكن بيننا من تجيد الرقص بعد"جنّات" سوى"ماشالله".. التى قالت لنا إن ابنتها الوحيدة "لحظة" لو لم تكن موديلا ثم تحوّلت فنانة تشكيلية

تلقائية مصرية وعالمية، بفضل معاونتك يا"سلطان" لكانت راقصة من الدرجة الأولى.. تصوّر!

وبالمناسبة لاحظت طوال اليوم، أنه لم تأت إشارة إلى"لحظة" إلاّ من أمها، وأسرّت لي"جنّات" أن"ماشالله" لا تعلم شيئا - فيما يبدو- عن علاقة ابنتها السرّية معك يا"سلطان"!..

وقالت لنا "راجية" إنها كانت تتمنى أن تجد من يعلّمها الرقص الشرقي، لكن دراستها فى المدارس الفرنسية حوّلتها، على غير رغبتها، إلى برجوازية صغيرة، تتقن الرقص الغربي.. واللغات الفرنسية والإنجليزية، وكشفت لنا أنها كانت ستترك الصحافة وتلتحق بالسلك الدبلوماسي. بسببك، لكنك أنت جعلتها تحبّ الصحافة!

أما الدكتورة"سماء" فقد كان الضيق باديا عليها، رغم محاولاتها المحمومة لإخفائه سواء بالضحك الهستيري، أو بالتعليقات القاسية..

فعندما كنا نرقص، انسحبت مدعيّة أن الرقص يحتاج لمواهب خاصة، لا تتوافر لها.. ربما كانت تقصد المفاتن الجسدية التى تفتقر إليها، أو أنه لا يليق بإنسانة رفيعة الثقافة والتعليم مثلها أن ترقص!.. لا أدري.

رقصنا وهيّصنا جميعا، ماعداها، حتى"راجية" الكاتبة المتميّزة، التى لا تجيد الرقص، شاركتنا بسعادة.. وتبدّت لنا كشخصية قوية، ومرنة.

ولا أعرف بالطبع ماذا قالت عنى الباقيات، أما أنا فكنت سعيدة بكل هذا الحبّ والاهتمام الحقيقى لك وبك.

وتحدّثنا تليفونيا مع"أمير" عندما كنا نضع اللمسات الأخيرة للتكاليف والتمويل وترتيب الخطوات.

وكان سعيدا بمبادرتى، ثم سألنى سؤالا صعبا:

= او فكّرنا فى واحدة تيجى معانا لندن، وتراعي"سلطان"، تفتكرى مين الأنسب؟..

قلت له إننى لا أعـرف الردّ على هذا السـؤال الآن، ووعـدته أن أسـأل الباقيات، وأردّ عليه فى نهاية سهرتنا، أو فى الصباح.

لم أفكر فى من سـيكون مع"سلطان" فى لندن خـلال رحلة العـلاج. ولمّا تحدّثنا فى الأمر، استبعدنا "ماشـالله" طبعا، بسبب اللغة، فـهى لا تعرف أية لغة.

وانسحبت الدكتورة"سماء" لأنها لا تستطيع الحصول على إجازة فى وقت قـريب، ولا تعـرف المدة المتـوقـعـة للعـلاج.. و"جنّات" لديـها المشكلة ذاتهـا، لا تستطيع الحصول على إجازة..

واقترحت "راجية" التفكير بطريقة مختلفة، قالت لنا:

= ليه مانقسّمش المدة، على فترات، كل واحدة فترة؟..

– فكرة ممتـازة، بالشكل ده كل واحـدة مننا ممكن تحـصل على إجـازة أسبوعين ثلاثة..

قلت بارتيـاح، لأننى أعـرف أن كل واحدة منهن تعـمل، ولا أريد أن أجـد نفسى منفردة بمصاحبتك على غير رغبة الجميع وبحكم الأمر الواقع.

وذكّرتنا "جنّات":

– لا تنسـوا أن"لحظة" تحبّ تشـارك فى المهمـة دى كرد جميل لمكتشفـها وراعيها الفني.

ردّت الدكتورة "سماء" متسائلة:

= وهى "لحظة" دى تعرف إنجليزى؟

أجابتها أمها "ماشالله":

– تعرف طبـعا، مـا هى الأيام دى بيعملوا لهـا مـعارض فى العـالم كله، فاتعلمت انجليزي، وكل شوية تلاقـيهـا فى بلد أجنبي.. وآهى الأيام دى فى ألمانيا. دى وعدتنى إنها تاخدنى معاها مرة علشان تورّينى الدنيا.

كنت الوحيدة التى تجمع بين وفرة الوقت وإتقان اللغة.. والوحيدة أيضا التى زارت لندن أكثر من مرة.. قالت"راجية" إنها زارتها مرة واحدة.

ورسى الأمر على أن أكون برفقتك فى الشهر الأول، ثم رتّبنا الفترة التالية ووزعناها بين الباقيات.. وافترضنا أن العلاج- حسب ما بلغنا عن تقديرات الخبراء- سيستغرق ٣ شهور على الأقل.

شهر لى وشهرين بين "جنّات" و"راجية" و"سماء" و"لحظة".

وأبلغت "أمير" بهذا.

قبل أن تغادر"ماشاالله".. وكانت أول من طلب ذلك، شكرتنى على الضيافة والكرم، وعلى سماحى بعرض اللوحات فى المعرض.. وقالت إنها ربما استطاعت أن تقنع ابنتها بأن تصحبها معها إلى لندن عندما يأتى دورها فى رعايتك.

كنت أنوى أن أستفسر منها عن سرّ عدم انبهارها بالفيلا.. لكن لم أقو على ذلك، فسألت "جنّات".. وكانت مبهورة بفيلتى من أول ما فتحت لها الباب، قلت:

= "ماشالله" دى ست طيبة، لكن عاملة زى ما تكون ساكنة فى قصر، وما بانش عليها الإعجاب بالفيلا.

- ماهى فعلا ساكنة فى قصر!.. عمرك زرتى بيتها في"الغورية"؟

= لأ.. طبعا.

- ساكنة فى قصر قديم من بتوع المماليك، جار عليه الزمن وبقى بيت مسكون بالإيجار، إيجار قديم، وكانت ساكنة أوضه ولا أوضتين منه زمان، دلوقت هى وبنتها ساكنين القصر كلّه، خمس غرف ونافورة فى الوسط ومشربيات ومخزن وجنينة، وحمام تركي، وخان للضيوف عملته "لحظة" أتيليه ترسم فيه، ومعرض دائم للوحاتها وأشغالها الفنية، بتعمل منحوتات شعبية وأشغال خرز وتطريز وحتى طرق على النحاس وفخاريات، وده

بيجيب لها دخل معتبر، ودايما عندها ضيوف وسياح ونقاد مصريين وعرب وأجانب.. ومعينة اثنين من خريجى مدارس اللغات يتعاملوا مع الزباين، ويرتبوا لها مواعيد المعارض والسفريات للخارج واتعلمت إنجليزى مخصوص علشان كده، يعنى بقت أبهّة.

كانت "راجية" تنصت لكلام "جنّات" بإعجاب، بينما "سماء" متشاغلة أو مشغولة بالإعجاب السرّى بالفيلا.

علّقت "راجية":

= معناها أن "لحظة" دى موهوبة كبيرة.. حقنا نزور قصرها ده، أنا بفكّر أكتب عنها وعن موهبتها، سمعت وقريت عنها وشفت صور لبعض أعمالها، وكنت الحقيقة فاكرة، انها خدعة، أو أنها بتقلّد غيرها..هل زرتيها يا "جنّات"؟

– أكثر من مرة، وهى فنانة تلقائية موهوبة فعلا..

سألت أنا "جنّات":

= وما حسيتيش بغيرة منها؟..

– غيرة من إيه؟..

= من واحدة من عمرك وبتنافسك على قلب حبيبك، وموهوبة ومشهورة عالميا.

– لو كنت بغير، كنت غرت من الأستاذة "راجية" أكثر.

= اشمعنى؟

– أولا: هى أصغرنا جميعا، ومعاه فى المجلة كل يوم.

ثانيا: بتسافر معاه فى رحلات جوه وبره مصر.. وبعدين كاتبة صاحبة قلم ورأى وفكر، ولها جمهور قراء.. وطبعا مش عايزة أمدح فى جمالها وذوقها والحاجات دى لأنها باينة لنا كلنا.

أثارنى جدا كلام "جنّات".. شعرت بغيرة قوية أعتقد أننى لم أستطع إخفاءها، فظهرت على وجهي.. مع أننى لم أكن أشعر بذلك من قبل طوال اليوم، ووجدت نفسى أردّد:

= وليه مابتحسيش بالغيرة منها؟

- أنا مش داخلة مسابقة جمال ولا مسابقة ذكاء، ولا منافسة على المواهب.. أنا باحبّ "سلطان" وهو بيحبّني، من غير منافسة ولا مسابقات، ولا مواهب..

الحبّ، حسب فهمى له، مالوش منطق، ومالوش حسابات، اللى بيحبّ مابيعاينش البضاعة، ويقرّر يحبّ ولاّ مايحبّش، على حسب المواصفات اللى هو عايزها أو اللى ترضيه، الحبّ مافيهوش بيع وشرا، مش صفقة يعني، مش مناقصة ولا مزايدة، ولا هو مقاولة ولا مصالح ولا حاجة من دى.. الحبّ بيحصل لنا غصب عننا، بنقع فيه، زى المطبات، زى المفاجآت.. زى حاجات كثيرة مالناش فيها يد.. هو إحنا اختارنا أشكالنا ولا حتى أساميناء ولا أهالينا، ولا.. ولا..

تكلمت الدكتورة"سماء":

= مشكلة "جنّات" ياجماعة إنها من أتباع الحبر الصوفى الكبير"فريد الأطرش"ومذهبه العريق:

الحبّ من غير أمل، أسمى معانى الغرام!

وضحكت بعصبية ملحوظة. ولم نضحك، لا أنا ولا"راجية" ولا"جنّات" طبعا.

ويبدو أن الطبيعة الصحفية غلبت "راجية" لأنها سألت "سماء" بطريقة مباغتة:

- وأنت يادكتورة من أتباع أى مذهب فى الحبّ؟!

ارتبكت، وخلعت النظارة، ثم ردّتها مكانها، ونظرت حولها، وبدأت تكلّم نفسها:

= أنا إيه اللى خلاّنى أفتح بقى واتحمق وأعلّق على تخاريف "جنونتي" دلوقت.. ماهى عارفة رأيى فى مذهبها.. دلوقت لازم ألاقى جواب للسؤال

الصحفى ده.. اتكلمى بقى يا"سمسم" ماتروحيش فى الدهولة بتاعتك كل مرة.

كانت تكلّم نفسها بصوت مسموع.. وأثار هذا المشهد الذى لم يستغرق سوى لحظات، دهشتى وتعجّب "راجية" أما"جنّات" فكان غريبا أنها لم تستغرب!

وصمتنا جميعا فى انتظار انتهاء الحوار الذاتى بين "سماء" ونفسها.

= إنتوا عايزين تعرفوا مذهبى فى الحبّ؟..

ياريت أقدر أشرح لكم مذهبى ببساطة، الحكاية أصلها معقّدة شوية، أنا والحبّ، مش واخدين على بعض قوي.. فيه حاجة مش سالكة بيننا، كنت زمان فاكرة أن الحبّ حاجة بسيطة جدا زى شكّة الدبوس، بتحصل فجأة، زى ما قالت"جنّات"..

لكن قعدت مدة طويلة أستناها، إنها تحصل فجأة، ماحصلتش، أستنى تانى، ماتحصلش.

شفت أخويا"سمير" لما حصلت له حالة الحبّ دي، وببجاحة سألته عنها، لما وقع فى غرام زميلته فى الكلية "تماضر" اللى بقت رسامة معاه فى المجلة. لقيت إنه كان فيه حاجة غامضة بتخلّيه كل ما يشوفها يحس بكهربا فى كل كيانه، مع أنه كان بيشوفها كل يوم فى الكلية..

هو قال لى على حكاية الكهربا دي.. قلت لنفسى طيب يا "سمسم" أديكى عرفتى الحكاية، لما تشوفى ولد وتحسى بكهربا، كل ما تشوفيه، يبقى الحبّ وقع أو تبقى وقعتى فى الحبّ.

أول واحد حسيت بالكهربا كل ما أشوفه، كنت باشوفه قبل كده، وماكانش فيه كهربا خالص.. هو"سلطان"!

حبّيته.. لكن ماحصلش حاجة من ناحيته.. كان عادي، بيعاملنى زى ما أكون أخته.. ليه؟..لأنى أخت صاحبه اللى بيعتبره زى أخوه.

ولما بقينا أصحاب كان الشعر هو السبب.

ولما رحت له المرسم، وقريت له قصيدة جديدة، اندمج معاي، قلت يبقى وقع فى حبّي، لكن باين عليه ماكانش بيحبّني.

وبعدين عرفت إنه بيحبّ واحدة اسمها"جنّات".. لكن مصاحب الموديل "ماشالله".. ومصاحبنى؟!

حصل لى ارتباك فى المخ والقلب وكل الأعضاء.. اتجنّنت، مابقيتش عارفة يعنى إيه حبّ!

ولما عملت الدكتوراه، كنت فاكرة إنها ممكن تساعدنى فى إنه يحبّنى أنا ويسيب حريمه.. فشلت، حاولت أحاصره، فشلت..

فالحبّ بالنسبة لى هو قصة فشل مستمرة لغاية دلوقت.

أما الحبّ على طريقة "جنّات" فهو لا مؤاخذة- كما قلت لها رأيى أكثر من مرّة- "عباطة"!

تنهّدت "سماء" ونظرت إلينا واحدة واحدة من وراء نظارتها، ربّما كانت تقرأ ردود أفعالنا على كلامها، ثم فاجأت"راجية":

= آدينى جاوبت على سؤالك الصعب، يا ترى إيه تكون إجابتك على سؤال الحبّ ده؟..

ضحكت "راجية" وهى تقول إنها كانت متوقعة السؤال، وأضافت:

- لو سألتينى السؤال ده من كام شهر، لقلت لك إننى لا أعرف الحبّ، ولا أعتقد فى وجوده، ولم أسمع به إلا فى الروايات والسينما والمسرح والأغانى والمسلسلات، لم أعايش قصة حبّ بين رجل وامرأة.. أعرف قصص زواج، علاقات بين الجنسين.. لكن حبّ لا.

= وإيه اللى غيّر رأيك؟..

"سماء" تقوم بدور الصحفية، و"راجية" الصحفية، تجيب:

– مش عارفه ح تصدّقونى ولا لأ.. لكن حا قول لكم اللى حصل لى وأمرى لله، إحنا بقينا قريبين قوى من بعض دلوقت، مش كده؟..

تنهّدت تنهيدة طويلة، وبدت أصغر من سنها، مع أنها أصغر الـ "سبع جنّات"ثم:

من يوم ماعرفت اللى حصل لـ"سلطان" اتهزيت، ولما زرته فى المستشفى، زادت الهزّة. ولما طال غيابه، ولم أعد أراه فى المجلّة كل يوم، لقيت نفسى بفكّر فيه، كل يوم.

لما كان معانا كل يوم، ماكنتش حاسّة بالشعور ده.. شوقى إليه وصلّنى لحالة الحبّ.. عرفت الحبّ لأول مرة فى حياتي.

مع أنى عارفه حكاية"جنّات".. وباقى الحكايات، مش كلّها يعني.

= يعنى عايزه تتجوزيه؟!

– طبعا!

= و"جنّات".. وباقى الحكايات ؟!

– الحبّ يادكتورة – زى ما أنت عارفة – واقعة تقع على اثنين، يقع فيه اثنان.. فلو أنا بحبّه، وهو لأ.. إيه الفايدة؟.. لو هو بيحبّنى وأنا مش دريانه، أو مابحبّوش، إيه الفايدة؟..

وعلى رأى الأستاذة"جنّات" الحبّ مش مسابقة ملكة الجمال.

فالأمر يرجع للقلبين معا.. مفيش حاجة اسمها حبّ من طرف واحد.. ده زى الدائرة الكهربائية، لها قطبين، لازم يكون من طرفين.

= لكن حسب مانعلم كلّنا دلوقت، هو بيحبّ "جنّات" بس.

وبتية الحكايات.. علاقات بس.

– .ش دى المشكلة فى رأيي.

= .مال إيه المشكلة؟

– "سلطان" فى غيبوبة، ولما ننجح بالحبّ، فى إخراجه منها، يمكن يعود لحالته الطبيعية، ويقدر يحبّ، ويحدّد هو بيحبّ مين.. ولو عايز يتجوّز، يتجوّز مين؟

وصل بى الغيظ والضيق أقصى حدوده، مع أننى لست فى المسابقة أو المنافسة.. ولا أعلن حبّى ولا رغبتى فى الزواج.. كل ما أطمح إليه هو أن نبقى معا كما كنا، دون أن أشترط عليك شيئا على الإطلاق.

وطبعا جاء الدورعليّ وسألونى كل الأسئلة وأجبت كما تعرف.

ولم تنته السهرة قبل أن نأتى على سيرة "لحظة" وهل يمكن أن تكون هى "نادرة" التى فى خيالك ؟..

ولم نصل إلى جواب..

وأبدت "راجية" تعجّبها لقدرتك على الجمع بين البنت وأمها.. وكنا سبقناها إلى التعجب، لكن"سماء" قالت بوصفها دكتورة فى التحليل النفسى، إنها حالة نادرة.. فردّدت"جنّات" ساخرة:

– تانى.. بتجيبى سيرة"نادرة" تانى؟!

٣٥

«أميـــر»

خلاص.. اقترب موعد سفرك للعلاج فى لندن.. بعد صراعات طويلة ومريرة مع الأطباء والمسئولين.. كان بعضهم يرفض الفكرة من حيث المبدأ، لكنهم تراجعوا بعد الحملة التى أطلقتها مجلة "الوعد" والدعوة للاكتتاب الشعبى فى تكاليف العلاج، وشاركت فيها صحف أخرى مستقلة وشخصيات عامة.. وفنانون، وكتّاب.

والمعرض الشامل للوحاتك التشكيلية والرسوم الكاريكاتيرية والصحفية، والكتاب الذى أصدرته المجلة وضم رحلاتك ولوحاتك فى ربوع مصر وتبرعت بعائداته ..

والنشاط الذى تنافست على القيام به "جنّات" و"راجية" و"هدى" والأخريات.. وجهود زميلك وصديق عمرك الكاتب القدير"سمير نور"..

وحماس صديقك القديم وزميلك فى الكلية الدكتور"مجد الطوبجي"..

لعلاج حالتك بالأسلوب الحديث الذى يتّبعه.. وحتى الروح التى تفهّم بها الدكتور"نور"حاجتنا إلى تجربة كل وسيلة.

فى فترة قصيرة أحسست أننى أرى مصر أخرى ..

"هدى" كانت مصمّمة يا"سلطان" أن تتحمّل لوحدها التكاليف كلها.. مليون جنيه.. تصوّر؟!..هل هناك عظمة إنسانية أكثر من هذا؟!

طبعا أنا وكل العائلة و"جنّات" رفضنا، وشكرناها. فقالت إنها مستعدة لتقديم شيك بالمبلغ لتسريع الإجراءآت، تستردّه بعد تجميع الأموال من الحكومة والنقابات والاكتتاب ومبيعات المعرض والكتاب.

وأعطتنى فعلا الشيك..

وأعطتنى فعلا الشيك..

أنا لا أصدّق ما يحدث..

وبعد يوم أو اثنين سيأتى الدكتور"مجد" ليبدأ معك آخر محاولات العلاج فى مصر، قبل السفر..

وعلى فكرة "هدى" ستكون معنا فى لندن، وستبقى معك فى المستشفى، وستبيت عندى.. لا أعرف كيف أصف لك تقديرى لهذه الإنسانة؟!

شئ آخر مدهش أريد أن أكلّمك عنه.. هو الناس الذين يأتون كل يوم لزيارتك.. من كل حتّه فى مصر، ناس لم يقابلوك من قبل، ولا يعرفونك شخصيا.. قراء مجلة "الوعد" وجمهور من زوّار معارضك.. وطلبة فنون جميلة، وزملاء قدامى لك من أيام الكلية، بعضهم كانوا يطلبون دخول غرفتك هنا، لكن الدكتور"نور" اتفق معى على ألاّ يدخل هنا إلا الأهل أو الأصحاب القريبين جدا منك.

ورفض بشدّة أى زوار ممن يسميهم "هواة الشهرة على حساب معاناتك"..

وحتى مسألة سماحه للكتور"مجد" بعلاجك، بذلنا فيها جهدا كبيرا، فى البداية رفض بشدّة، وقال إن أى تغيير لأسلوب العلاج قد يعرّضك للمخاطر.. وهو لا يريد أن يتحمّل مسئولية العواقب.

قلت له إننى مقتنع بنظرية العلاج التى يتّبعها الدكتور"مجد" فاشترط علىّ التوقيع على أوراق رسمية أتحمّل فيها المسئولية، ووافقت ووقّعت.. أنا فى الحقيقة أريد أية وسيلة توصّلنا للخروج من الغيبوبة.

وأعرف أن الدكتور"نور" والفريق المعاون له، قدّموا كل ما فى استطاعتهم، وهم مشكورون، لكن لماذا نغلق أبواب الأمل؟.. من يدري؟.. فربما جاء الفرج على يد زميلك وصديقك القديم؟..

ولو حدث ذلك فسيكون معجزة.

والمدهش فى الأمر أن الدكتور"مجد" أعلن أنه يقوم بالعلاج دون مقابل، إكراما للزمالة والصداقة بينكما، وتقديرا منه لشخصك وفنك ومبادئك، وهذا ما كتبه فى الرسالة الرسمية التى سلمّها بيده للدكتور"نور" عندما رتبت لهما اللقاء.

مصر فيها خير لسه.. مصر لسه بخير.. الحمدلله، دى حاجة تطمّن..

وربنا يسهّل ونخرج من الأزمة دى على خير.. وترجع لنا أنت بخير.

كدت أبكي، وأنا أتكلّم مع واحد من زوارك، رجل طيب، قال إن عمره ما قابلك، ولا شافك، لكنه يحس أنه يعرفك من زمان، من الكاريكاتير..

قال إنه لا بد أن يشوفك، ليطبع قبلة على جبينك، ويصلّى فى غرفتك ويدعو لك بالشفاء لتعود لنا بالسلامة..

ملأت الدموع عينّي، وقبل أن أقول موافق، وأطلب دخوله، ظهر الدكتور"نور" ونبّهنى إلى خطورة التصرّف بدافع من العاطفة..

فاعتذرت للرجل وأنا أبكي.

لكنّه قال بسماحة بادية:

– سيعود لنا بالسلامة، وساتى لأسلّم عليه.

٣٦
الدكتور «نــور»

يا"سلطان".. أنا الدكتور"نور الدين البدري".. أردت أن تعرف منّي أنني اضطررت للموافقة على طلب الدكتور"مجد الطوبجي" ورغبة عائلتك وشقيقك الأستاذ"أمير سعيد" بتجربة أسلوب علاجي جديد..

ومع أن لى تحفّظات على أى تدخّل فى مسار علاجك، خاصة بأسلوب مخالف لما نتبعه كخبراء فى هذه النوعية الحسّاسة من الغيبوبة..

إلا أن رغبتى فى أن أراك وقد تحرّرت من أزمة الغيبوبة، دفعتنى للتجاوب.. والاستجابة لهما..

وربّما زادنى التحسّن النسبى لحالتك، رغبة فى أن ألتقيك بعد الشفاء القريب إن شاء الله، فقد عرفت الكثير عنك وعن فنك الرفيع، وشخصيتك المحبوبة، وأتطلّع إلى اليوم الذى أكون صديقا لك فيه، وأرجو أن أكون محلّ إقبال منك على هذه الصداقة..

ومن مظاهر التقدّم البطئ، أنك أصبحت من وقت لآخر تستجيب لبعض المؤثرات، والأصوات، بعد أن تعاون معنا معظم من يتردّدون عليك، ونفّذوا نصائحنا وإرشاداتنا.

ومع أننى لست من أنصار فكرة العلاج فى الخارج، فى حالتك، لعلمى بأن ما لدينا من تقدّم فى اتّباع نظريات العلاج واستخدام أحدث وسائله وأدواته، يكفى ويضارع ما هو موجود فى العالم المتقدّم.

وأرى أن مسألة حماس المتحمسين للعلاج فى الخارج، تعود لنوع من عقدة الخواجة، ولقصور فى كثير من المجالات الأخرى فى مصر..

ومبلغ المليون جنيه المقدّر كتكلفة للعلاج فى بريطانيا، مبلغ ضخم، حتى أن الحكومة لا تقوى عليه..

ومع ذلك فإذا تيسّر، وتم تدبيره، كما أكّد لي"أمير".. فلا أملك إلا أن أتمنى لك الشفاء..

وكلمة أخيرة..

قرأت ما كتبه الأستاذ "سمير نور" عنك، فأعطانى مزيدا من الضوء حول شخصك العزيز الذى لم تتح لى الفرصة للتعرّف عليه إلا فى أسر الغيبوبة.. وشعرت بسعادة لأننى أساهم فى إنقاذ حياة إنسان وفنان ورجل مبادئ.. وابن بار لمصر..

وأحبّ أن أطمئنك ياصديقي"سلطان" أن أحوال مصر ستكون أفضل، و الأزمة التى وقعت فيها، ستمر.. وستنهض بجهود المخلصين من أبنائها.. فلا تقلق يا أخى..

وعد إلينا لتشارك معنا فى نهضة مصر من أزمتها.

فمصر ليست ماض فقط.. مصر مستقبل، دائما مستقبل.

٣٧

«راجيـــة»

اكتشفت عنك أشياء لم أكن أعرفها..

المعرض الشامل ورسوم الكاريكاتير، والكتاب / الكتالوج، الذى وضعوا له عنوانا جميلا "وصف مصر من جديد بريشة سلطان سعيد" وما فيه من لوحات. وكتاب جميل وصغير،عنوانه "سلطان الكاريكاتير" أصدره زميلنا الناقد التشكيلى "صبرى سالم".. كشفت كلها عندما جاءت فى وقت واحد، عن صورة شاملة لما تنطوى عليه أنت.. فكرا وفنا وروحا.. أشياء كانت متناثرة، نعرف بعضها، لكنها لما اجتمعت ألقت لنا أضواء كاشفة عليك.. كاشفة لعالمك.

وحتى الموضوعات التى تنشر أسبوعيا فى المجلة..

ورسائل القراء، ورسومك الكاريكاتيرية القديمة فى جريدة"الحقيقة" عندما كنت تلميذ ثانوى.. وتوقيعك عليها الذى لم يتغيّر حتى الآن..

كلها أعطتنى إشارات مهمة وإضافية عن "سلطان سعيد" الذى كنت أعتقد أننى أعرفه..

فى أحد رسومك الكاريكاتيرية القديمة، يقول المواطن للمسئول:

– أنا مش عايز منك حاجه.. أنا بس جاى أتفرّج على البيروقراطية فى مصر الحديثة!

وفى رسماية ثانية.. المسئول الكبير يقول لمرؤوسه:

– خللى بالك، وماتخليش الجمهور يشوفك وأنت بتاخد الرشوة!

وبعد سنوات:

تلميذ سهران يستعد للامتحانات، يرفع يديه بالدعاء قائلا:

- يارب.. لو نجّحتنى فى الثانوية العامة، حادخل لك جامعة الأزهر.

التفاصيل الصغيرة عندما تجاورت شكلّت الصورة الكبيرة.

وجعلت"سيادة القانون" فى كاريكاتير آخر، رجلا يقول له المسئول الكبير:

- مش عايزين النهارده.. فوت علينا بكره!

ومع أننى كنت برفقتك فى بعض رحلات وصف مصر، إلا أن عيناى رأتا مفهوما حضاريا وجماليا فى الكتاب الذى جمعها كرحلة واحدة طويلة، عميقة، مثيرة للتأمّل، محركة للآمال، باعثة على التفكّر..

أما الرسوم الصحفية وقد ضمّها لأول مرة المعرض الشامل، فقد طلب أحد أساتذة الفنون الجميلة تجميعها فى مجلد كبير أو كتالوج، لتدريس أسلوبك لطلبة قسم"الجرافيك".

لأنها، فى رأيه، تقدّم نقلة نوعية فى هذا الفن.

فبعد أن كان مجرد رسوم توضيحية للكلام الذى تصاحبه، تحوّل إلى كلام بلغة الريشة، يتكامل مع كلام القلم.. ويتبادلان التأثير وخدمة الفكرة التى يتناولها الكاتب بالكلمات والأفكار، والفنان بالخطوط.. والألوان.

ونقطة مهمة أخرى تحدّث عنها هذا الأستاذ، هى طريقتك المميزة فى الرسم، حيث لا ترفع ريشتك عن اللوحة إلا مع نهايتها، وهو ما وصفه بالأسلوب الحى المتدفق.

وأخيرا.. كتبت مقالا عنك..

أول مرة فى حياتى المهنية يتاح لى مجال التحدّث عنك، طبعا تجنّبت الحديث عن علاقتنا، لأن هذا شأن يخصّنى ويخصّك، لا أتحدّث فيه إلا بموافقتك، وإذنك.. واتفاقنا معا.

تحدّثت عن تعارفنا الأول، وعن رحلاتنا الصحفية، وعن زمالتنا فى المجلة، وعن تنوّع وتعدّد مواهبك، وعن خصوبة خيالك.. وسخريتك الذكية، وإخلاصك لمبادئك وفنك..

وتحدّثت عن أنك تحبّ الفن أكثر من أى شىء آخر.. ولمّحت إلى أنك ربما لم تتزوّج لهذا السبب..

فأنت متزوّج بالفعل ممن تحبّ..!

ولولا أننى كنت كعادتي، قادرة على كبح جماح نفسي، لكتبت لك رسالة مفتوحة على صفحات مجلتنا "الوعد".. عرضت فيها عليك الزواج، لأنني- فى غيبوبتك- عرفت الحبّ.. وعرفت أننى أحبّك!

٣٨

«سمير»

كان لا بد أن أراك يا "سلطان".. وأتحدّث إليك على وجه السرعة..

حاول الدكتور"نور" أن يؤجّل زيارتى هذه لما بعد قيام صديقنا وزميلنا السابق بكلية الفنون الجميلة الدكتور"مجد" بمحاولته العلاجية..

قال إنه يريد لك أن تستريح قليلا من الزيارات، حتى تكون مهيّأ للمعالجة بـ"الطريقة اللمسية"- كما أطلق عليها بكلمات لمست فيها مسحة من السخرية..

ولمّا أوضحت له أن لقائى بك سيفيدك - حسبما أعتقد- فى كل الأحوال.. وافق على مضض، بعد أن أبلغنى أن هناك تحسّنا ملحوظا فى استجاباتك، وردود أفعالك.. وشعرت بالسعادة لهذا التطوّر المهم.

وأحبّ أن أبلغك أن هناك تحسنا ملحوظا أيضا فى ما وصفته لك فى المرّات السابقة، ويطلق عليه المراقبون "الحراك السياسي

فى الشارع المصري".. هناك ما لا يقل عن خمس فئات من الشعب بدأت تعبرّ عن رغبتها فى التغيير ورفضها للواقع المرير.

العمال والفلاحون والموظفون والصحفيون والقضاة.. وغيرهم، كلّهم قاموا باعتصامات أو مظاهرات أو وجّهوا نداءآت أو نظموا تجمعات أو إضرابات.. أو عبّروا عن رفضهم واحتجاجهم على الحال القائمة، بطريقة أو أخرى.. والمسألة تزداد أتساعا، ظهرت حركة جماهيرية تطالب بالتغيير،

وبدأت تتسع، أقول لك هذا لأطمئنك أن الغيبوبة التى كان الشعب المصرى واقعا فى براثنها، بدأت أعراضها تخفّ.. بأمل أن تزول .. تتلاشى.

فهل نستبشر خيرا.. ونقول إنك أنت أيضا على طريق كسر قمقم الغيبوبة؟!

عُد إلينا يا"سلطان".

٣٩

الدكتور «مجـد»

يا"سلطان".. عُد إلينا..

أتحدّث إليك الآن وأناديك أن تعود إلينا من قوقعة الغيبوبة.

وأبشّرك بأن ما بشرته طوال الأسبوع الماضى من برنامج العلاج بأسلوب إطلاق وتحرير مجرى الطاقة فى جسمك، قد بدأت آثاره تتضح، فأنت الآن تتحرّك بنفسك، يمينا ويسارا، وتسمع حديثى إليك الآن وتتجاوب معه، وتفتح عينيك.. وتبقيهما مفتوحتين.

وها أنت على وشك النطق والكلام، تتنفس بانتظام، دون جهاز التنفس.

وخلال الأيام السبعة التى تنتهى اليوم، تمكّنت أنا من رصد كل النقط التى تعوق حركة الطاقة الحيوية لديك، وفك المتاريس، وفتح الهواويس، وهكذا بدأت شلالات الحركة والطاقة تعود لمسراها، وتعود معها الحياة لبدنك، ويستعيد عقلك الظاهر والباطن انسجام عملهما، دون تعارض أو تصادم..

أنت الآن على وشك العودة الكاملة لما كنت عليه قبل شهرين، قبل أن تقوقع ذاتك بذاتك، فى قوقعة الغيبوبة.

عُد إلينا الآن يا"سلطان"..

فكل الأبواب المغلقة والزنازين المُغلّقة، تنفتح، وكل المتاريس تنهار، والقيود تتحطّم.. حطّم قيودك يا أخي، فقد مضى عهد الغيبوبة.

كلّ إرادتك ملك يديك.. كلّ الحرية لك.

انهض يا"سلطان".. فأنت من دعاة النهضة.

وقد جاء زمن النهضة، جاء دورك فى الخروج من سجن الغيبوبة.

يا"سلطاااااااااااااااان".. هل تسمعنى؟!

٤٠

«سلطـــان»

آااااااااااااااااه..!

يااااااااااااااه..!

أين أنا؟..

من أنت؟..

ماذا جرى لى؟..

أنا.."سلطان سعيد"

وأنت.. أنت صديقي"مجد الطوبجي"

ياااااااااااااه..!

لم أرك من ربع قرن، لكننى أعرفك.. وأحبك، وأشكرك.

أين كل الناس؟..

أين "جنّات"؟..

أين "ماشالله"؟..

أين "هدى"؟..

أين "سماء"؟..

أين "لحظة"؟..

أين "راجية"؟..

أين "نادرة"؟..

يااااااااااااه!..

هل هى كل هؤلاء..

هل أنا"سلطان"؟..
أين "أمير"؟..
أين "سمير"؟..
أين الدكتور"نور"؟..
أين أنا؟..
ولماذا أنا هنا؟..
آااااااااااااااااه!..
هذه أرضى أنا
وأبى قال لنا
مزّقوا أعداءنا.
أنا فعلا "سلطان"..
سلطان قانون الوجود.
الله موجود، وأنا موجود..
ومن يعادينى لن يكون له وجود.
أحب عيشة الحرية
زى الطيور بين الأغصان

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

أحمد فتحي

شاعر «قصة الأمس»

محمد رضوان

يصدر ٥ مايو ٢٠١٦

"أما عن حريتي التي تتحدثين عنها، فأنا لم أفقدها، ولم أضيعها، ولا أنتظر من أحد أن يمنحني إياها.. لكن في الوقت نفسه، لا أعرف هل أنا حر فعلا؟! الحرية ليست ملكية فردية، لو كنت حرا في بلد غير حر.. ما الفائدة؟ حر في مجتمع معاد للحرية! الحرية يا "لحظة" كالماء والهواء، لايمنحنا إياها أحد، ولا يستطيع أن يسلبنا إياها أحد، إلا لو تخاذلنا نحن.. ولم ندافع عن حقنا فيها".

هكذا يؤمن بطل رواية "سبع جنّات"، هكذا يعيش حياة اختارها، ويدفع ثمنها.

تدور أحداث الرواية في أجواء الحراك السياسي الذي عاشته مصر في السنوات السابقة على ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١. كان هناك رهان على شيء ما يتوقع أن يعصف، انفجار ما ستقبل عليه مصر. في هذ السياق كان "سلطان" بطل الرواية يعاني التشتت، واضطراب العواطف، فيتعرض لغيبوبة تلازمه من أول مشاهد الرواية حتى النهاية؛ إذ يفيق مع إرهاصات الحراك الذي مهد للثورة.

باحث ثقافي وروائي وصحفي مقيم في لندن
كاتب متفرغ في مجلة "صباح الخير" القاهرية التي عمل فيها منذ منتصف الستينيات، عندما التحق بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة.

منير مطاوع